أضواء
على الحضارة الإسلامية

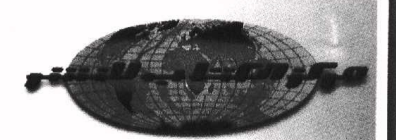
بقلم
دكتور / أحمد عبدالرحيم السايح

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م

مركز الكتاب للنشر

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
٢٠٠١



مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون : ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر : ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت : ٢٧٢٢٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله. وبعد:

العقيدة الإسلامية، عقيدة استعلاء من أخص خصائصها، إنها تبعث في روح المؤمن بها الإحساس بالعزة من غير كبر، وروح الثقة في غير اغترار، وشعور الاطمئنان في غير تواكل.

والعقيدة في الإسلام، حقيقة أساسية من حقائق الوجود، وهي في ذاتها كفيلة بتعديل القيم والموازين، وتعديل الحكم والتقدير، وتعديل المنهج والسلوك، وتعديل الوسائل والأسباب.

ويكفي أن تستقر هذه الحقائق وحدها في قلب الإنسان المسلم، لتقف به أمام الدنيا كلها بمن فيها وما فيها، عزيزا كريما ثابتا.

والعقيدة في الإسلام، عقيدة حياة، تحث على طلب العلم، وتدعو لاحترامه واستثماره وتبيح للإنسان مجال الفكر، وتفسح له ميدان النظر، وتسمح له بالتمتع بالطيبات.

عقيدة تسمو بالإنسان، فتفيض على النفوس المؤمنة بروح الحرية، وتبعث في الأفئدة حرارة الشمم والحمية والإباء.

عقيدة تحمل للنفس الإنسانية روحا من الأدب، لا يقدر على الإتيان بمثل غيرها مما يتخيله البشر، ذلك لأن هذه العقيدة تؤثر على كل قوة

من قوى النفس، فتقيمها علـى الصـراط المسـتقيم، صـراط اللــه العـدل، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام ١٥٣].

والعقيدة يقول عنها الفيرمى: «العقيدة ما يديـن الإنسـان بـه، واعتقـد الشيء: اشتد وصلب، واعتقد كذا بقلبه».

ويقول الدكتور نجيب الكيلانى: «إن الدين الإسلامى، عقيـدة شـاملة لتنظيم الحياة وتفسيرها، واسـتجابة لحاجـات النفـس الإنسـانية، ومشـعل يضئ الطريق أمام الناس ويبلغ بهم غايات السـعادة والاسـتقرار ووسـيلة لتقويم العلاقات العامة والخاصة».

هذه العقيدة التى جاء بها الإسلام هى أعطف شئ على الإنسـان فـى مصائبه وأحنى آسٍ عليه فى نوازله يعتصم بها فى مخاوفـه ويلتجـئ إليـها فى أموره ويستهل بها صعوبات الحياة، ويموت بها مرتاحـا قريـر العـين، لتيقنه أن يدا تنتظره لتحمله إلى عالم أرقى من هذا العالم، وقدرة تحف به تحفظه من عاديات الفناء وجائحات العدم.

تأمل فى أمر هذه العقيدة التـى تمـس أخـص جهـة مـن جـهات حيـاة الإنسان وتدبر بإمعان فى شعوبها وفنونها السـارية، مـن سـائر عواطـف النفس مسرى الكهرباء فى أسلاكها.

وتأمل وتدبر: ترى قوى النظر، والشم، واللمس، والـذوق، والحس، مستخدمة ومسخرة لهذه العقيدة.

فما مناظر هذا الجمال التكوينى، وبدائع هذا العالم الحسـى، ممـا يؤثـر على كل حاسة من جهـة قابليتـها، إلا مثـيرات لهـذه العقيـدة، موقظـات لزيادة الشعور بها. والعقيدة الإسـلامية كاملـة لأنـها مـن عنـد الله، ومـا كان من عند اللّـه كان الاطمئنان إليه من لوازم الحياة.

وما أكثر سمات العقيدة الدينية فى الإسلام، وما أعظم خصائصها.

١) إنها فكرة كلية تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخافية.

٢) إنها تثبت الثقة والطمأنينة فى الإنسان، وتمنحه القوة لمواجهة القوى الزائلة والإلحادية والأوضاع الباطلة، بقوة اليقين، وقوة الثقة بالله.

٣) إنها توضح للإنسان غايته واتجاهه وطريقه.

٤) إنها تجمع للإنسان طاقاته وقواه، وتدفعها فى اتجاه الغاية.

٥) إنها تقدم للإنسان الحل لمشكلاته جميعها على امتداد الأزمان والأمكنة.

٦) إنها تقدم الحلول، ومعها المؤيدات لتنفيذها والإبقاء عليها.

٧) إنها تتسع لكل أنواع النشاط الإسلامى. وتربط بين المنطق والواقع والمادة والروح.

ومن يتأمل العقيدة الإسلامية، ويتدبر ما جاءت به من مفاهيم تناولت معضلات الحياة. إن من يتأمل ذلك يحس بالاطمئنان، ويتخلص من الحيرة التى تواجه كثيرا من المفكرين.

فليس فى الإسلام، ألغاز، ولا طلاسم، وليس فيه ما يصعب على العقل فهمه، وقد هيأ الله للعقيدة فى الإسلام، الاعتماد على دعائم ثلاث هى:

بديهة العقل، وصحة الدليل، ومطابقة حقائق الوجود.

فحين يقول القرآن الكريم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]. فإنه يوقظ بديهية الشعور الإنسانى، ويستثير مكامن الفطرة القويمة.

وحين يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]. فإنه يدعو إلى النظر فى الدليل، ويحث على التفكير فى أسرار هذا الوجود.

ولقد جمع القرآن الكريم بين الدليل العقلى وبين النظر العلمى فى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٢، ٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ — ٢٠].

وتعتمد العقيدة الدينية فى الإسلام على ركنين هامين:

أولهما: توحيد الله فى ذاته، وصفاته، وأفعاله.

ثانيهما: تنزيه الله سبحانه وتعالى عن مشابهة الخلق، وأن يتبرأ الإنسان من كل ما يجيش بالصدر من الميل إلى تكييفه وتصويره، وأن يعتقد قلباً وقالباً بأنه الحى القيوم اللطيف الخبير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ولهاتين العقيدتين أو الركنين: «توحيد الله وتنزيهه» اثر على نفس معتقدهما من جهة التأديب النفسانى، والتكميل الخلقى، لا يدرك خطورته إلا من أشرقت عليه لمحة من نور المعتقد الصحيح.

والباحث المفكر، يرى أن الإسلام ليس تخطيطا اجتماعيا من إنسان وليس طريقا من طرق التربية وضعه فرد من البشر.

وإنما الإسلام وحى من الله العليم بكل شئ، وهو تعاليم الله الخالق لكل موجود ولهذا كان الإسلام نظاما للحياة الإنسانية الفاضلة، نظاما لحياة الفرد والمجتمع معا.

وأساس هذا النظام هو النظرة إلى الإنسان على إنه طبيعة تشتهى ولكن لها قياد، وتستجيب لدوافع الأنانية، ولكن تميل إلى الاجتماع ولها قابلية نحو المشاركة الجماعية.

وتوجيه الإسلام يقوم على تنبيه إرادة الفرد ليأخذ زمام الأمر بيده ويقوم على تنمية الوعى بالمجتمع، وعلى صيانة هذا المجتمع من الانحلال والتدهور والضعف.

وتنبيه إرادة الإنسان يعتمد على حوافز مادية وأدبية من شأنها أن توقظ فى الإنسان المعنى الإنسانى، وتدعوه إلى أن يرتفع إلى مستوى يليق بكرامته.

والواقع أن الحوافز فى الإسلام، صورة عملية سلوكية، تدفع المسلم إلى أن يعمل بإرادة قوية، وعزم صادق.

والإسلام الحنيف نظام كامل، تكفل بسعادة الفرد والجماعة، فى الدنيا والآخرة، ولهذا لم يترك عنصرا من عناصر الخير والصلاح إلا أمر به، ودعا إليه وحث عليه. ولم يترك عنصرا من عناصر الشر والفساد، إلا نهى عنه، وحذر منه.

والإسلام بنى نظامه على الواقع، وهو أن الإنسان «جسم وروح» وكل ما جاء به الإسلام من عقائد، وعبادات، وآداب، وتشريعات، لا تخرج عن دائرة رعاية حق الجسم، وحفظ الروح.

ولهذا كانت الحوافز «مادية وأدبية» تدفع المسلم إلى الحركة والعمل الجاد، ليعيش كريما، يؤدى رسالته الإسلامية، ويساهم فى بناء المجتمع.

والحوافز فى العقيدة الإسلامية تعتمد ..

أولا: على تذكير المسلمين بنعم الله سبحانه وتعالى التى لا يحصيها عد.

ثانيا: على العبادات التى اقترنت بالحوافز للحث على أدائها.

ثالثا: على الأعمال الصالحة. ليستمر العمل، ويبقى له الخلود.

فالمؤمن فى ظل الإسلام يستطيع أن يتكيف مع الأحداث، ويجد فى هذا التكيف النفسى، واطمئنان القلب.

وللعقيدة الإسلامية من الحوافز ما يوجه الإنسان فى الحياة ويضمن له استمرار النجاح. وهذا السر فى نجاح المسلمين من السلف الصالح، حينما توفرت لهم الهمم العالية والعزمات القوية. وكان المسلمون فى دراساتهم وبحوثهم، ينتقلون من المعلوم إلى المجهول ويقومون بدراسة الظواهر دراسة دقيقة، بقصد الانتقال من المعلول إلى العلة .. وكان طريقهم إلى الحقائق العلمية خطوات منهجية، من شأنها التأصيل والعطاء.. وهذه الخطوات نجدها:

أولا: فى التحرر من قيود العرف، والتخلص من رواسب التقاليد، وبهذا تزال الأنقاض قبل أن يوضع حجر الأساس ويرفع البناء .. لتكون القاعدة نظيفة تعتمد على تربة صالحة. ولهذا تمكن المسلمون فى ظل التوجيهات القرآنية أن يقيموا أسس الحضارة على دعائم قوية وأصيلة.

ثانيا: فى التأمل والمشاهدة وجمع المعلومات الحسية والمادية تمهيدا للبحث والدرس قال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا**﴾ [الإسراء: ٣٦].

فهذه الآية كما ترى تنهى عن اتباع ما لم يقم به علم يستند إلى حجة سمعية ورؤية بصرية. أو براهين عقلية. وهى طرق الاستدلال التى تنحصر فى العقليات والسمعيات والمحسوسات فالمسائل العلمية فى

الإسلام لا تأخذ طابعا علميا، ولا ترتقى إلى درجة معلومات إلا إذا قامت عليها بينة واستندت إلى دليل.

ثالثا: فى الموازنة والاستقرار وإذا كانت مرحلة التأمل ووزن المعلومات. وتمييز صحيحها من زائفها، تعتمد على المشاهدات الحسية والعقلية، فإن مرحلة الموازنة والاستقراء تضم إليها خطوات التفكير العقلى.

رابعاً: فى الحكم المبنى على الدليل والبرهان الصادق. فإذا قام الدليل القاطع والحجة البالغة اتضحت الحقيقة قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ**﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقال تعالى: ﴿**قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ**﴾ [البقرة: ١١١].

وقد استقرت دعائم الخطوات المنهجية فى أعماق النفوس. فكانت الرائد الأمين للعقول والأفكار.

وإذا كانت الأمة الإسلامية فى هذا العصر تخطو على طريق مجد الأسلاف فهذا هو التاريخ الإسلامى؛ إذ أثبت فى صدق أن الحضارة الإسلامية هى خير حضارة عرفتها الإنسانية .. ونحن لا نريد للحضارة الإسلامية أن تكون درساً يتناوله العلماء والطلاب بالبحث التام.

ولا نريد لحضارتنا الإسلامية أن تكون ثقافة عامة يحصل عليها الناس ليقال انهم مثقفون، إنما نريد أن تكون حضارتنا الإسلامية حضارة موصولة الأخذ والعطاء نأخذ منها القيم والنهج، ونعطيها الفكر والعمل.

وما يراه القارئ فى كتاب «أضواء على الحضارة الإسلامية» ومضات مشرقة وعلامات مضيئة فى الطريق الصحيح. تعبر فى وضوح عن المجد الحضارى للمسلمين.

أحمد عبد الرحيم السايح

القسم الأول

الدفع الحضارى فى الإسلام

- مقومات الحضارة الإسلامية
- العلم والدين
- الدعوة إلى العلم
- الفكر والعقل
- الثقافة الإسلامية
- العلم والمناظرة

مقومات الحضارة الإسلامية

مفهوم كلمة الحضارة مفهوم تطور مع الزمن لاسيما فى تاريخ الحياة العربية والمفهوم الأصيل لكلمة الحضارة فى اللغة العربية أنها: تعنى حياة الحضر والإقامة الثابتة فى المدن والقرى وعكسها (البداوة) وهى حياة التنقل فى البادية ولقد عرف العرب الفارق بين حياة البادية وحياة الحضر منذ كانت بادية ومنذ كان حضر.

ولكن أول من تصدى لهذا التمييز على أساس الدراسة الواعية والتسجيل والتحليل العلمى هو عبد الرحمن بن خلدون بل أن هذا العالم هو أول من عالج شئون الحضارة العربية بطريقة علمية تحليلية.

على أنه إذا كان ابن خلدون قد بلور مفهوم الحضارة عند العرب على أنها ذلك النمط من الحياة المستقرة والذى يناقض البداوة فينشأ القرى والأمصار، ويضفى على حياة أصحابه فنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة وإدارة شئون الحياة والحكم وترتيب وسائل الدعة وأسباب الرفاهية.

وإذا كان ابن خلدون بلور هذا المعنى التاريخى واعتبر الحضارة غاية العمران فإن مفهوم الحضارة فى عصرنا قد امتد إلى ألوان من المعنى هى أبعد وأوسع مما رآه ابن خلدون فى عصره. وفى بيئته العربية فى انتقالها الاجتماعى والسياسى والثقافى والمدنى من البادية إلى الحضر.

ولئن كان بعض العرب القدامى قد استعملوا لفظ (مدنى) بمعنى (اجتماعى) فإن مفهوما آخر ظهر بها أصبح الآن يعرف بالمدنية بل أن

ابن خلدون ذاته كان سباقًا أيضاً فى هذا المجال اللفظى فاستعمل صيغة التمدن وكان يعنى بها (التحضر).

على أن تلك المفاهيم اللغوية إنما نشأت فى بيئة عربية كانت حياة الحضر فيها تقابل حياة البادية ولكن هذه الحالة من التقابل لا تكاد توجد بصورتها التقليدية إلا فى جهات قليلة جدا خارج عالمنا العربى ولذلك فإن لفظ الحضارة فى مفهومه العالمى ومفهومه الحديث المعاصر بصفة خاصة قد أصبح أكثر اتساعا مما كان يدل عليه فى مفهومه اللغوى التقليدى.

ولفظ الحضارة فى مفهومه الحديث، ومفهومه العالمى المعاصر، قد أصبح أكثر اتساعا، مما يدل عليه فى مفهومه اللغوى التقليدى. وإذا كان أصل الحضارة: الإقامة فى الحضر. فإن المعاجم اللغوية الحديثة، ترى أن الحضارة هى الرقى العلمى، والفنى، والأدبى، والاجتماعى، والاقتصادى فى الحضر . .. وبعبارة أخرى أكثر شمولا، هى: الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة والفكر، ومجموع الحياة، فى أنماطها المادية والمعنوية.. ولهذا كانت الحضارة هى: الخطة العريضة - كمًا وكيفًا - التى يسير فيها تاريخ كل أمة من الأمم، ومنها الحضارات القديمة والحضارات الحديثة والمعاصرة .. ومنها الأطوار الحضارية الكبرى، التى تصور انتقال الإنسان أو الجماعات، من مرحلة إلى مرحلة.

والحضارة باختصار شديد هى جملة المظاهر المعنوية التى يخلفها التاريخ والتى تبقى فى المجتمع على مر الأيام دليلا على القدرات الذهنية المميزة، وتعبيرا عن روح هذا المجتمع والشعب الذى يمثله. ولا شك أن المظاهر المعنوية تأخذ قوالب مادية مختلفة تتجسم فيها تلك المعنويات، وتشكل المظاهر المعنوية فى صور مختلفة كالفنون والآداب والعلوم والمعارف، ومجموع ما ينتج عن ذلك كله من تسجيلات ومشاهد فى

الآثار والعمائر وأسلوب الحياة وآداب المعاش اليومى وتقاليد المجتمع فى التقارب والتفاهم والتعايش.

والمدنية هى الوسائل والأدوات المادية التى يستعين بها الإنسان على تحقيق حضارته وهى العديد من الأشياء والأدوات المادية التى تعين الإنسان على التقدم فى مضمار الحضارة وإذا كانت الحضارة هى الإبداع فى مجالات الفنون والمعارف والعلوم فالمدنية هى السبيل إلى تذليل الصعاب الحضارية والأدوات المادية التى تبلغ بها الحضارة مستوى الإبداع والتقدم. وكلما سيطرت الحضارة على وسائلها المادية أمكنها أن تحقق ألوانا من الفن والإبداع الذى تسجله الحضارة فى جملة مظاهرها المعنوية والخلاقة. وقد تؤدى الماديات المختلفة إلى رفع مستوى التقدم الحضارى. وقد تؤدى إلى تخلفه وانحداره. والذكاء الإنسانى فى مجال استخدام الماديات هو الحكم فى توجيه هذه الماديات فإما أن يسير بها سيراً حثيثاً نحو الإبداع والتألق والتقدم أو أن يهبط بها إلى مجال العبث والفساد والتدهور، وإما أن تسيطر القيم الروحية العالية على هذا الذكاء فتحدد مساره بأهداف إنسانية عالية [1].

ولئن كان الإسلام قد امتاز بأنه دين الحضارة الإنسانية، فإن الواقع يبين للباحث والمفكر، والدارس، أن الحضارة الإسلامية استمدت كل مقوماتها، وعناصر وجودها، وأسباب نمائها وازدهارها، من الإسلام ذاته .. والإسلام كان ولا يزال دين الحضارة والإنسانية، بمعنى أنه كان منذ نزوله دين عبادة، ودين معاملة، وانه أنشأ لونا من الحضارة، عرف باسمه، وهو الحضارة الإسلامية لهذا نجد أن المستشرقين - مدفوعين بدوافع شتى - قد ظلموا الحضارة الإسلامية، حينما أطلقوا عليها فى مؤلفاتهم وكتاباتهم: الحضارة العربية أو حضارة العرب، وهذا يدل على الجهل والتحايل لأن الحضارة العربية لم تقم بدون الإسلام..

(١) مجلة الفيصل العدد ٧ ص ١٥ المجلد الأول . الرياض . دراسة الدكتور عبد الفتاح الديدى.

وقد قامت الحضـارة الإسـلامية، علـى دعـائم أساسـية، جعلـت منـها حضارة متميزة، وفريدة فى تاريخ البشرية .. من ذلك:

أولا: أن الإسلام قد انطوى على طاقة روحية، جعلت منه قوة فاعلة، والشيء المهم فى هذه القوة الفاعلة. أنها كانت أصلا جذريـا يمـس كـل الأوضاع فى حياة الناس.

ثانيا: أن الإسلام دين دعوة .. وفكرة الدعوة فى الإسلام، قد واتتـها ظروف الانتشار فى النطاق العالمى، وفى ظلال الدعـوة المستمرة، تمكـن الإسلام من نشر طابعه الحضارى، كعقيدة للحياة، وأن يصبـح فـى أقـل من ربع قرن، مقوما أساسيا من مقومات الحضارة الإنسانية.

ثالثا: كان الإسلام دينا سهلا غـير معقـد، ولا مركـب فـى عقيدتـه، وكـان فـى الوقـت ذاتـه دينـا مباشـرا، يتصـل فيـه الإنسـان بخالقـه دون وساطة:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ولا نجد عقيدة تطلب من الإنسان شهادة أبسط من شـهادة الإسـلام، على عمقها وعظمتها: «لا اله إلا اللّه محمد رسول اللّه» .. عبـارة سـهلة رائقة نظيفة ، تقـف بالعـاقل علـى عتبـة الدخـول فـى الإسـلام، موقفـا سهلا. والمقوم الأصيل فى هذه البساطة، أن القـرآن الكريـم هـو الوعـاء الأساسى للعقيدة كلها.

رابعا: كان الإسلام دينا رحبـا، يدعـو إلى سبيل العقـل، فـى حـدود أصول العقيدة كما يدعو إلى سـبيل الضمـير، والحـق. ومـن هنـا كـانت الدعـوة إلى النظـر، وإلى المعرفـة، أساسـا مـن أسـس الدعـوة الإسـلامية، وكان التفتح البصير مفتاح الدعوة للحضارة.

والإسلام فى رحابته الحضارية، استطاع أن يمتص ألوان الحضارات فى البلاد التى أوقد فيها قناديل الضياء وأن يسبغ عليها طابعاً إسلامياً شاملاً ..

خامسا: البيئة بعواملها المحلية، وموقعها الجغرافى، قد ساعدت على إعطاء الجزيرة العربية ذاتها، منطقة وصل بين أطراف العالم، عند ملتقى القارات الثلاث فى العالم القديم «أسيا وأفريقيا وأوروبا» .. ومن شواطئ الجزيرة العربية، تمتد بحار الشمال، بادئة بالبحر الأبيض المتوسط. وبحار الجنوب بادئة بالبحر الأحمر، والخليج الإسلامى[1] وقد كان عدم اتصال المياه بين الشمال والجنوب سببا فى أن شبه الجزيرة العربية كانت نقطة تغير، فى وسائل المواصلات، وفى ظهور الوساطة التى كتب للمسلمين أن يقوموا بها .. ولم يكن الأمر بالطبع مجرد التوسط الجغرافى على أهميته، وإنما كان الأمر أوسع وأعمق، فهو توسط من ناحية الطبيعة البشرية، ومن ناحية السلوك الإنسانى، ومن ناحية الاعتدال فى كل ما يتصل بالمادة وهى أمور كلها اتصلت بطبيعة البيئة العربية. ومن هذه البيئة الوسط انتشر الإسلام شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا، بالبر والبحر على السواء .. وقد شاء اللّه سبحانه وتعالى، أن تستيقظ الجزيرة العربية فى القرن الرابع عشر الهجرى، الموافق القرن العشرين الميلادى، والقرن العشرون يعتبر أزهى قرون الحضارة فى الغرب. شاء اللّه أن تقوم – فى الجزيرة العربية – المملكة السعودية، على أساس القرآن الكريم، لا على أنه المادة الأولى أو الثانية من الدستور، كما تفعل كثير من الدول التى يقال عنها عربية وإسلامية ولكن على أساس أنه هو كل شىء، فى التعليم، وفى التوجيه، وفى الحكم، وفى السياسة وفى الثقافة، وفى جميع نواحى الحياة .. وقد قامت فى السعودية نهضة علمية وثقافة جبارة، جعلت الجامعات تعمل فى إعداد كامل، لمؤتمرات إسلامية جامعة مثل مؤتمر الفقه الإسلامى، ومؤتمر العلم والتكنولوجيا، ومؤتمر الاقتصاد،

(١) التسمية بالخليج هى أفضل طريقة أمام تحديات العصر.

ومؤتمر الشباب، ومؤتمر الدعاة، ومؤتمر المساجد، ومؤتمر المذيعين، وصارت الجامعات والكليات ومعاهد العلم، تصدر صحفا ومجلات ذات دراسة وعمق، معدة إعداداً يتفق مع ما وصلت إليه الطباعة من تقدم ولا شك أن هذا كله دعامة من دعامات الحضارة الإسلامية القائمة على الإسلام حتى لا يأتى إلينا مخرف من الشرق، أو من الغرب، فيقول أن حضارة الإسلام قد شاخت وهرمت .. شاء اللّه أن تظل تجربة الحكم بالقرآن الكريم، قائمة فى أرض الجزيرة العربية، كما كانت فى عهد الرسول ﷺ، وعهد الخلفاء الراشدين.

سادسا: الوسطية التى جاء بها الإسلام والوسطية التى جعلت فيها الأمة الإسلامية وشرفها اللّه بها .. ليست الوسطية المبتدعة فى الفكر المستورد الحديث، فالوسط المبتدع فى الفكر العصرى، وسط عفن قام بين تراكمات عفنة من اليمين واليسار. ولا شك أن اندفاع بعض المجتمعات الإسلامية إلى هذا الوسط العفن، وما جاء حوله من يمين ويسار، يعد عند الدارسين لتطور الشعوب، كارثة فكرية خطيرة، وردة جاهلية وثنية .. والوسطية الإسلامية وسطية عامة شاملة، لا تعترف بتقسيم اليمين واليسار، بل أنها:

١) فى العقيدة تقوم على توحيد اللّه وإفراده بالعبادة، والتمسك بما شرع اللّه من آداب السلوك والمعاملة.

٢) وفى التشريع تقوم على أصول رئيسية، مصدرها الأساسى: القرآن الكريم، وسنة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

٣) وفى الأخلاق تقوم على خلوص النية، ونقاء الضمير، والتمسك بقيم الخير، والحق والتزام الآداب الفردية والاجتماعية ..

٤) وفى الاجتماع تقوم على الأسرة المتماسكة القائمة على ركائز المودة، والرحمة، والإخلاص، والاحترام، والتعاون .. .

٥) وفى السياسة تقوم على الشورى، واحترام حقوق الإنسان، والتزود بكل أسباب القوة والدفاع عن العقيدة.

٦) وفى الاقتصاد تقوم على تبادل المنافع، واتخاذ المال وسيلة لا غاية، واحترام الملكية الفردية.

٧) وفى الثقافة تعتمد على طلب المعرفة، واستخدام العقل فى كسب المعارف.

٨) وفى الفكر تقوم على استنهاض العقول، وحرية الفكر، واستقلال الإرادة.

فأى وسطية أسمى من هذه الوسطية التى ارتضاها الله، وجعلها سمة هذه الأمة الإسلامية، ذات الحقيقة الكبيرة، والوظيفة الضخمة فى هذه الأرض.

ويقول فى ذلك شهيد الأمة الإسلامية سيد قطب: «إنها الأمة الوسط التى تشهد على الناس جميعا، فتقيم فيهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدى فيهم رأيها .. فيكون هو الرأى المعتمد، وتزن قيمهم، وتصوراتهم، وتقاليدهم. وشعاراتهم فتفصل فى أمرها، وتقول: هذا حق منها، وهذا باطل .. لا التى تتلقى من الناس تصوراتها، وقيمها، وموازينها وهى شهيدة على الناس، وفى مقام الحكم العادل بينهم. وبينما هى تشهد على الناس هكذا فان الرسول هو الذى يشهد عليها فيقرر موازينها وقيمها، ويحكم على أعمالها وتقاليدها، ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيه الكلمة الأخيرة .. وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة، ووظيفتها، لتعرف وتشعر بضخامتها ولتقدر دورها حق قدره، وتستعد له استعداداً لائقا .. وأنها للامة الوسط بكل معانى الوسط، سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادى الحسى .. «أمة وسطا» فى التصور والاعتقاد، لا تغلو فى التجرد الروحى، ولا فى الارتكاس المادى. إنما

تتبع الفطرة الممثلة فـى روح متلبس بجسد، أو جسد تتلبس به روح. وتعطى لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كـل زاد، وتعمل لترقية الحياة وامتدادها، وتطلق كـل نشاط فـى عالـم الأشواق، وعالم النوازع، بلا تفريط ولا إفراط فى قصد، وتناسق واعتدال ..

«أمة وسطاً» فى التفكير والشعور، لا تجمد على ما علمت، وتغلق منافذ التجربة والمعرفة، ولا تتبع كذلك كل ناعق، وتقلد تقليد القردة المضحك، إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول، ثم تنظر فى كل نتاج للفكر والتجريب .. وشعارها الدائم: الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها فى تثبت ويقين ..

«أمة وسطاً» فى التنظيم، لا تدع الحياة للمشاعر والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب. إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب وتزاوج بين هذه وتلك، فلا تكل الناس إلى سوط السلطان ولا تكلهم كذلك إلى وحى الوجدان، و لكن مزاج من هذا وذاك.

«أمة وسطاً» فى الارتباطات والعلاقات لا تلغى شخصية الفرد ومقوماته، ولا تتلاشى شخصيته فى شخصية الجماعة أو الدولة، ولا تطلقه كذلك فردا أثرا جشعا، لا هم له إلا ذاته .. إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدى إلى الحركة والنماء وتطلق من النوزاع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد و كيانه، ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو ومن المنشطات ما يثير رغبة الفرد فى خدمة الجماعة، وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادما للجماعة، والجماعة كافلة، فى تناسق، واتساق.

«أمة وسطاً» فى المكان، فى سرة الأرض، فى أوسط بقاعها، وما تزال هذه الأمة التى غمر أرضها الإسلام، إلى هذه اللحظة .. . هى الأمة التى تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب، وجنوب وشمال، وما

تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعا وتشهد على الناس جميعا، وتعطى ما عندها لأهل الأرض قاطبة، وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة، وثمار الروح والفكر، من هنا إلى هناك، وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء ..

«أمة وسطاً» في الزمان، تنهى عهد الطفولة البشرية من قبلها، وتحرس عهد الرشد العقلى من بعدها، وتقف في الوسط تنفض عن البشرية، ما علق بها من أوهام، وخرافات، من عهد طفولتها وتصدها عن الفتنة بالفعل والهوى، وتزاوج بين ثرائها الروحى من عهود الرسالات، ورصيدها العقلى المستمر في النماء، وتسير بها على الصراط السوى بين هذا وذاك»؟[1] .. فالأمة الإسلامية ليست فى حاجة إلى الأحزاب التى أوجدها ورعاها التبشير الصليبى .. وليست فى حاجة إلى التقدمية، والثورية واليمين والوسط واليسار .. وليست فى حاجة إلى اشتراكية المنحرفين، من سماسرة الشيوعية والدجل الفكرى، وليست فى حاجة إلى تعدد المنابر، واستيراد ما هب ودب .. وليست فى حاجة إلى تجارب الأمم. إذن بدون شك، الأمة الإسلامية فى حاجة إلى الإسلام والإسلام فقط ..

سابعا: القرآن الكريم ذاته. وذلك أن القرآن كان أعظم ما عرفته الإنسانية فى تاريخها الممتد الطويل .. وقد تضمن القواعد الرصينة الكفيلة بقيام المجتمع الإنسانى السليم. تنشده الإنسانية فتجد فيه مبتغاها من التشريعات الفردية والعلاقات الأسرية، والمعاملات الاقتصادية والحربية، والقوانين المدنية، والأنظمة الدولية، وبعبارة أوجز .. . تجد فيه الأمة كل ما تحتاج إليه فى حياتها العامة والخاصة والدين والدنيا.

---

(١) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب.

ثامنا: اللغة العربية نفسها كانت دعامة من دعائم الحضارة الإسلامية، وذلك لأنها أعرق اللغات منبتاً، وأعزها جانباً، وأقواها جلادة، وأغزرها مادة، وأدقها تصويراً لما يقع تحت الحس وتعبيراً عما يجول فى النفس ..

وعندها من المرونة على الاشتقاق والقبول للتهذيب، وسعة صدرها للتعريب. ما يمكنها من الاستمرار فى عطائها، نزل القرآن بلسانها فجعلها أكثر رسوخاً وأشد بنياناً، وأقوى استقراراً، وبفضل القرآن، صارت العربية، أبعد اللغات مدى، وأوسعها أفقاً، وأقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية، عبر التطور الدائم التى تعيشه الإنسانية. واستطاعت العربية فى ظل عالمية الإسلام، أن تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر، وترتقى حتى تصل إلى أرقى اختلاجات النفس، وليس هناك معنى من المعانى، ولا فكر من الأفكار، ولا عاطفة من العواطف، ولا نظرية علمية من النظريات، تعجز اللغة العربية عن تصويره بالأحرف والكلمات، وتجسيده داخل الكلمات.

تاسعا: وبجانب هذا وذاك، كانت هناك مقومات تاريخية وبشرية، تتصل بالعصر الذى ظهر فيه الإسلام، ثم بالعنصر البشرى، والتكوين السكانى، فأما عن العصر، فقد كان الإسلام ختام الشرائع السماوية، وكان الإسلام بذلك رباطاً لها من الناحية التاريخية، كما كان فى الوقت ذاته تصحيحاً لها، لما أصابها من تخريف الفلاسفة والوثنيين.

ولقد كان هذا كله، قوة دفع للفكر الإسلامى، وما اتصل به من حضارة ومن هنا انطوى التفاعل الإسلامى على قوة غلبت كل التحديات الجاهلية فانتشر طابع الحضارة الإسلامية على فعالية، لم يعرف لها مثيل فى تاريخ الإنسانية.

عاشراً: ومما يذكر أن ترسيخ معالم الحضارة الإسلامية، قد تضاعف بفعل مقوم إنسانى آخر .. وهى تنوع السلالات التى دخلت فى الإسلام، ثم هناك ظاهرة أخرى ترتبت على كل هذه الجوانب

والعوامل، وهى ظاهرة الاتصال والاستمرار الزمنى فى الحضارة الإسلامية .. ومن وراء كل ذلك هناك الإيمان باللّه فهو القوة الدافعة الموجهة التى تسند الضعيف من أن يسقط وتمسك القوى من أن يجمع وتعصم الغالب من أن يطغى، وتمنع المغلوب من أن ييأس.

* * *

العلم والدين

العلم والدين: كلمتان من أكثر الكلمات تـداولاً وشـيوعاً واسـتعمالاً في عالـم الإنسانية قديمـاً وحديثـاً. ولكـل كلمـة مـن الكلمتـين مدلولها ومفهومها، وواقعها.

فالدين هو الأمور الاعتقادية التي جـاءت عـن طريـق الوحـي الإلهـي. وهو ضالة الأرواح، وأنشودة العواطـف، وبلسـم جـراح الحيـاة، ونسـيم الطمأنينة والأمن والأمان، ومهب نفحات الحق، وهو واحد لا تعدد فيـه بعث اللّـه به الأنبياء وأرسل الرسل.

قـال تعـالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وجاء في دائرة معارف القرن العشرين حرف (دال): أن الدين هـو الطاعة والانقيادِ واسم لجميع ما يعبد به اللّـه...

والعلم لغة بمعنى المعرفة، ولا حاجة بنا إلى أن نستشهد بكـل مـا ورد في المعاجم. ففي لسان العرب لابن منظور مثـلا: علمـت الشـيء أعلمـه علما: عرفته. وعلم بالشـيء: شـعر بـه. وعلمـت بالشـيء بمعنـى عرفتـه وخبرته. والعرفان: العلم. وعرفه الأمر أعلمه إيـاه. والتعريـف: الإعـلام. ومثل هذا في سائر المعاجم اللغوية ..

والمعنى المشارك فيه هو مفهوم لفظ الإدراك. ويمكن أن نقـول: إدراك النفس على الوجه العام الشامل حسياً كان أو ذهنياً.

فالإحساس والشعور وإدراك الأشياء وتصورها وفهم معانى الألفاظ مفرداتها ومركباتها ومؤلفاتها، وما يعقل وما يتخيل وما يتوهم، كل ذلك يصح لغة، أو لعله يصح أن يؤدى حصوله فى النفس لفظ العلم ولفظ المعرفة على حد سواء.

والعلم ضربان: إدراك ذات الشىء .. والثانى: الحكم على الشىء بوجود شئ هو موجود له. أو نفى شئ هو منفى عنه .. والعلم نظرى وعملى. فالنظرى ما إذا علم فقد كمل، نحو العلم بموجودات العالم. والعلم العملى ما لا يتم إلا بأن يعمل به كالعلم بالعبادات والمعاملات ..

وترى الدراسات العلمية أن العلم هو مجموع المعارف الإنسانية المؤيدة بالدلائل الحسية. والعلم لا يعترف بمسألة إلا إذا قبلها العقل وأيدها الحس وقبلت الخضوع لأسلوبه من الاختبار والمراجعة والتمحيص والغربلة والتحقيق.

ويطلق العلم أيضاً: على ما يضاد الجهل على الإطلاق. وقد يقصد بالعلم تلك المعرفة الرياضية والطبيعية التى قامت على تجارب دقيقة والتى وصل عن طريقها الإنسان إلى كشف قوة البخار والكهرباء والذرة والفضاء إلى ما شاء اللّه.

وإذا كانت هذه التعاريف تعطى فى مضمونها المعنى الواضح لكلمتى الدين والعلم. فهل يجتمعان أو لا يجتمعان ؟

فى نظر الماديين والطبيعيين: أن العلم والدين نقيضان لا يجتمعان وضدان لا يلتقيان. فمفهوم العلم عندهم لا يعدو حدود الطبيعة ولا يجتاز أسوارها.

يقول العالم الطبيعى الملحد «هكسلى»: يطلب العلم حقائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس مع الاستعانة بجميع ما عرف من أنواع الآلات..

ويرى العالم المادى «بلفور» أن العلم يتوقف فى تحصيله والتثبيت منه على المقاييس، فكل ما لا يقبل القياس من الأشياء فهو خارج أو يكاد يكون خارجا عن حدود الطبيعة ..

ويقول «وندل»: العلم سواء استعان بالآلات أم لم يستعن عماده ما يلاحظه الإنسان ويحسه من الكائنات، وما تهديه إليه فى المعامل الكيميائية التجارب والآلات التى تمكنه من انتزاع غوامض أسرار الطبيعة من مكامنها العميقة ..

تلك هى معرفة علماء المادة والطبيعة والشيوعية. وما ورد وراء هذا القدر الضئيل يريد العلماء الماديون أن لا يصلوا إليه، ولا يجهدوا أنفسهم فى البحث فيه ..

فما هى الطبيعة ومن الذى أوجدها ؟ ومن الذى يمسك الأرض والسموات أن تزولا ؟ ذلك وغيره مما يتصل بالعقيدة والدين غير وارد فى تفكير هؤلاء الباحثين لعوامل شتى جعلتهم كالحيوانات ..

والحقيقة التى لا يستساغ إنكارها: إن العلم والدين يلتقيان فى إسعاد البشرية ورفاهية الإنسانية، والوصول بالناس إلى ما قدر من الخير والسلام والسعادة والنجاة.

غاية العلم الكشف عن الحقيقة وخدمة الإنسان فى الحياة. وغاية الدين إسعاد الإنسانية فى الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة .. فالدين طريق لمعرفة الحقيقة ودعوة إلى العلم النافع المفيد. والعلم أداة لمعرفة الحقائق ودعوة إلى الإيمان بالله. إذن وبدون مجانبة للحق يمكن أن تقول: إن الدين يعطى المعرفة عن طريق الوحى الإلهى. على حين ينشد العلم المعرفة عن طريق البحث والملاحظة والاختبار والتجربة والنظر .. والعلم يصف ويحلل. والدين يأمر ويبين ما ينبغى أن يكون. وقد يستطيع العلم أن يفيدنا ما هو الإنسان ؟ وكيف أصبح على ما هو عليه ولكن الدين وحده هو الذى يخبرنا لم يعيش الإنسان؟.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ١، ٢].

والدين وحده هو الذى يخبرنا أيضاً إلى أى غاية يجب أن توجه حياة الإنسان. وتخلص من هذا إلى أن التطور العلمى والتقدم الفكرى لا يتعارضان مع الدين الإسلامى فى شئ أبدا .. حقيقة أن موضوع العلم وطرق البحث وأساليب المعرفة تختلف عنها فى الدين، ومع هذا لا يناقض أحدهما الآخر..

والإسلام ينظم الحياة من جميع وجوهها، فهو نظام عالمى يوجه الإنسان فى الحياة ويساعده على أن يحصل لنفسه وللجماعات الإنسانية على أسمى درجة من الكمال الإنسانى فى الروح والخلق والمادة والعقل والقيم والتقدم. وكل تكييف لعمل الإنسان فى ظل الإسلام حسب تعاليم الإسلام يعتبر عبادة مشروعة .. لهذا كله فسح الإسلام مجال العلم للعقل الإنسانى. وتعدى به أسوار الطبيعة وتغلغل به فى مباحث الكون والحياة ، ولم يقف به عند حدود الماديات الطبيعية بل تعداها إلى كل شئ فى الحياة يفيد بها الإنسان ويعود عليه بالسعادة. والإسلام لا ينسجم مع نتائج البحث العلمى والعقلى فحسب. بل جعل متابعة البحوث وطلبها واجبا دينيا يؤجر عليه الإنسان المسلم. وكلمة العلم فى القاموس الإسلامى كلمة مطلقة لم تخصص بمادة معينة من مواد العلم.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

إلى غير ذلك من الآيات التى وردت فيها كلمة العلم مطلقة دون تقييد بمعلوم مخصوص أو منظور مخصوص .. ويرشد هذا الإطلاق فى مضمونه إلى أن العلم فى نظر الإسلام ليس خاصا بعلم الفقه والأصول والأحكام. وإنما يشمل كل إدراك يفيد الإنسان فى القيام بمهمته فى الحياة. فإدراك الصناعة وآلاتها وما يصلح به النبات. وما تستنبت به الأرض. وإدراك ما يصلح الحيوان ويزيد فى الثروة الحيوانية، وإدراك الموارد الزراعية والحيوانية والصناعية. والثروات المعدنية. وإدراك الأمراض وعللها وكيفية الوقاية منها وعلاجها، وإدراك وسائل القوة والدفاع. كل ذلك علم. ولقد جاء الإيماء بهذا كله واضحا فى القرآن الكريم وبه كان العلم بمعناه الشامل: العنصر الأول من عناصر الحياة فى الإسلام. فالعلم فى القرآن الكريم يشمل كل أنواع المعرفة التى تتصل بكل ما ينفع الناس فى دينهم ودنياهم، وفى معاشهم ومعادهم، وفى أجسادهم وأرواحهم .. وهذا أمر طبيعى باعتبار أن الإسلام نظاماً كاملاً خالداً، ينظم شئون الدين والدنيا ويقيم الحياة الصحيحة.

والوسائل التى اتخذها الإسلام لنشر العلم تعتمد على خطوات أهمها:

أولاً: التأمل والنظر والدراسة والتدبر فى ملكوت الأرض والسموات وما خلق اللّه من كائنات.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا
لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ
زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا
طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾
[ق: ٦ - ١١].

إلى غيرها من الآيات التى تدعو إلى النظر، واستعمال الفكر والعقل.

ثانياً: البحث العلمي بالانتشار فى أقطار الأرض لدراسة الجبال والأنهار والصحارى والبحار، ومعرفة النبات والحيوان، ووسائل الاستفادة من كل هذه الأشياء والكائنات.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣].

فالله سبحانه وتعالى لم يخلق لنا هذه الكائنات عبثا، وإنما سخرها لنا لننتفع بعد دراسة أساليب هذا الانتفاع، على أن نستخدم أيسر السبل وأسهل الوسائل لهذا الانتفاع.

ثالثاً: الاستفادة مما تركه السابقون من معارف و علوم وآثار، ليمحصوها ثم يضيفوا إليها البحث والاستنباط من حقائق ونظريات. لأن الحضارات والمعارف الإنسانية سلسلة محكمة متينة الحلقات، يؤثر سابقها في لاحقها، ويتأثر حاضرها بماضيها، والحضارات الإنسانية ليست ملكًا لأمة بعينها، ولا هى وقف على جماعة من الناس، لأنها صرح هائل أسهمت فيه كل أمة بنصيب .. وهناك كثير من الآيات فى السير والنظر والاتعاظ والتنبيه ..

رابعاً: الرحلة فى طلب العلم. والرحلة فى طلب العلم من أشرف الرحلات على الإطلاق. ولهذا شد المسلمون الأولون الرحال. وقطعوا الفيافى. وجابوا البحار فى طلب العلم. فنهضوا بالثقافة، وأسسوا أرقى حضارة.

* * *

الدعوة إلى العلم

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٣].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

إلى غير ذلك من الآيات .. ولا سبيل إلى قيام الإنسان بمسئولية الخلافة إلا بالعلم وإذا كانت الخلافة الإنسانية في الأرض أساسها العلم.. فإن رسالة الإسلام تدعو إلى العلم، والبحث والتأمل، والحركة، والرحلة، والسعى..

قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

وقـــال تعـــالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

وقـال تعـالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾ [فاطر: ٢٧ - ٢٨].

ففى تلك الآيات ومـا جـرى مجراهـا. دروس علميـة تطبيقيـة يقدمـها القرآن الكريم للمسلمين. لتكون دافعا وموجها ومرشـدا. فدراسـة المـاء فى تركيبه واكتشاف مصادره واستغلال قوته وتحلية مالحة. والرياح فـى قوتـها واتجاهـها وتلقيـح النبـات. والثمـار والجبـال والنـاس والـدواب والأنعام.. كـل ذلـك علـوم يدعـو الإسـلام لهـا، ويحث المسـلمين علـى طلبها. بل واجب الإسـلام طلـب العلـم على جميع المسـلمين وطالبـهم بالمزيد منه حتـى تسـتنير القلـوب .. وتطمئـن النفـوس فـى كـل الأمـور والأحوال .. قال تعالى فى سورة التوبة:

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وهذه الآية جاءت بين آيات تتحدث عن الجهاد والقتال، وهى تشـير إلى أن تعلـم العلـم أمـر واجـب علـى الأمـة جميعـا. وجوبـا لا يقـل عـن وجوب الجهاد والدفاع عن الوطن. فان الوطن يحتاج إلى من يناضل عنـه بالسيف. وإلى من يناضل عنه بالحجة والبرهان. بل تقوية الروح المعنويـة وغرس الوطنية الإسلامية. وحـب التضحيـة أسـاس فـى البنـاء .. وتشـير الآية - كما جاء فى كتـاب التفسـير الواضـح - إلى أن غايـة العلـم هـو التفقه فى الدين وفهم أسراره فهمًا تصلـح بـه نفـس العـالم حتـى يكـون ربانيا قرآنيا. وأن أثر ذلك فى الخارج هو الدعوة إلى اللّـه، وانذر قومك

إذا رجعت إليهم، فتعلمهم وتثقفهم وتهديهم وتربيهم على حب الخير وعلى حب العمل والجد، وأن اللّه يحب المؤمن القوى فى نفسه وعقله وخلقه وعلمه وبدنه. وهذه مهمة الرسل الكرام.. وأن وضع الآية التى تشير إلى العلم والتعلم فى وسط آيات الجهاد والقتال لمن المعجزات التى كشف عنها هذا العصر، فان الحروب اليوم تعتمد على العلم والفقه الحربى أكثر مما تعتمد على السلاح(١).

وفى الآية – كما جاء فى تفسير المراغى.- إشارة إلى وجوب التفقه فى الدين والاستعداد لتعليمه فى مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذى يصلح به حالهم فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التى يجب على كل مؤمن أن يعرفها والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد لهم عند اللّه من سامى المراتب ما لا يقل فى الدرجة عن المجاهد بالمال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة اللّه والذود عن الدين والملة، بل هم أفضل منهم فى غير الحال التى يكون فيها الدفاع واجبا عينيا على كل شخص(٢).. وإذا كان الإسلام قد دعا المسلمين إلى وجوب تعلم العلم والتفقه فى الدين، فانه أيضاً يدعو المسلمين إلى طلب المزيد من العلوم والمعارف. قال تعالى فى سورة طه:

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

روى البخارى ومسلم وابن ماجة عن معاوية رضى اللّه عنه قال: قال: رسول اللّه ﷺ: «من يرد اللّه به خيرا يفقهه فى الدين».

وروى أحمد والطبرانى بإسناد جيد عن صفوان بن عسال المرادى رضى اللّه عنه قال: أتيت النبى ﷺ، وهو فى المسجد متكئ على برد له أحمر. فقلت له: يا رسول اللّه إنى جئت اطلب العلم: فقال:

(١) التفسير الواضح. ج ١١ ص ٢٤.

(٢) تفسير المراغى. ج ١١ ص٤٨

«مرحبا بطالب العلم، إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء من حبهم لما يطلب».

وروى ابن ماجة بإسناد حسن عن أبى ذر رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب اللّه خير لك من أن تصلى مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلى ألف ركعة».

وروى الترمذى وقال حديث حسن عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل اللّه حتى يرجع».

وجاء فى كتاب «الترغيب والترهيب» للمنذرى: أن معاذ بن جبل رضى اللّه عنه قال:

«تعلموا العلم، فان تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام. ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس فى الوحشة والصاحب فى الغربة والمحدث فى الخلوة والدليل على السراء والضراء والسلاح على الأعداء والزين عند الإخلاء يرفع اللّه به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة، قائمة تقتص آثارهم ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة فى خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه. لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة».

وهناك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والآثار الإسلامية ما يؤكد دعوة الإسلام إلى العلم، والتعلم، والتعليم .. ولهذا انطلق المسلمون الأولون يبحثون ويدرسون، حتى وصلوا إلى أرقى حضارة عرفتها الإنسانية فى تاريخها .. وترك لنا رجال الفكر الإسلامى ما يؤكد أنهم هم المؤسسون الحقيقيون للتفكير العلمى .. وما على المثقفين

المسلمين إلا أن يبحثوا فى التراث الإسلامى ليروا كيف كان إنتاج أجدادهم لقد كان غزيرا فى الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء وسائر العلوم الكونية ..

وهناك مؤلفات إسلامية علمية نالت شهرة عالمية، لدرجة أن الكثير منها ترجم إلى لغات العالم عشرات المرات مثل طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة، والقانون فى الطب لابن سينا. والكليات لابن رشد، وتفاسير العلل وأسباب المرض لابن النفيس، والحاوى فى الطب لأبو بكر الرازى. وغير ذلك من كتب الطب والأدوية والكيمياء والرياضيات.

ويقول العالم المسلم الكيميائى جابر بن حيان: «وأول واجب أن تعمل وأن تجرى التجارب، لان من لا يعمل، ولا يجرى التجارب لا يصل إلى أدنى مراتب الإتقان، فعليك يا بنى بالتجربة لتصل إلى المعرفة وجابر بن حيان هو من علماء القرن الثانى والثالث الهجرى، ومعنى هذا أن العلماء المسلمين هم أول من أسس قواعد البحث فى وقت مبكر..».

ونجد أن أبا بكر الرازى صاحب كتاب «الحاوى فى الطب» حينما يستشيره الخليفة عضد الدولة، فى اختيار مكان لبناء مستشفى، يتبع طريقة علمية، قوامها العلم والملاحظة الموضوعية، فقد وضع قطعا من اللحم فى جهات مختلفة من بغداد وراقب تعفنها، فالمكان الذى أسرع التعفن فيه إلى قطعة اللحم، أهمله، لأنه غير صحى، واختار المكان الذى كانت قطعة اللحم فيه آخر القطع تعفنًا، وذلك لهوائه النقى، وتربته الجافة.

وابن سينا مؤلف كتاب «القانون فى الطب» حينما يصف النباتات الطبية، يعتمد على مصدرين فى الطبيعة فهو إما يصف النبات غضا طريا، ويتكلم عن طوله وغلظه، وورقه، وشوكه وأزهاره، وثمره .. وأما أن يلاحظ ما يباع جافا عند العطارين من أخشاب أو قشور أو أزهار أو ثمار ..

ولعلك تعرف يا أخى القارئ أن العلم الحديث لا يزال يعتمد على ما قرره أبو الحسن على بن سينا، فوصف النبات غضا طريا، يسمى حاليًا «علم الشكل» وملاحظة القشور والأخشاب يسمى «علم النبات الصيدلى» ومن كل هذا ندرك أن دعوى المستشرقين المتضمنة أن التفكير العلمى غير موجود لدى المسلمين .. دعوى باطلة تنبئ عن حقد دفين، وليس عجيبا أو غريبا أن يقول المستشرقون ذلك، فقد أعماهم التعصب عن الحقائق ولكن العجيب والغريب أن يذهب أبناء العالم الإسلامى إلى جامعات أوربا فيعود الكثير منهم وقد تنكر لكل ما قام به العلماء المسلمون من جهود علمية.

وبالمناسبة لا يمنعنا الإسلام من طلب علوم الكيمياء والتكنولوجيا، والفيزياء والذرة والفضاء والجيولوجيا وغيرها من علوم عصرية ولا يمنعنا الإسلام من إرسال البعوث إلى دول أوربا لمعرفة المزيد من العلم الذى نحن بحاجة إليه. ولكن ذلك رهين بشرط تسليح الشباب المبتعث بسلاح العقيدة والإيمان.

والإسلام لا يمنعنا أبدا من العلم الذى يستفيد منه المسلمون، والمسلمون فى حاجة إلى العلوم العملية كحاجتهم إلى العلوم النظرية. لنبنى المجتمعات الإسلامية. ونصنع الحديد والصلب والأسلحة المختلفة، ونستفيد بثروات البلاد الإسلامية.

ومن المعروف فى هذا العصر أن التخصص هو أحدث وسائل الدراسة الجامعية، وآية العقل الناضج أن يقف عند حدود ما يعلم، فلا يصدر الأحكام إلا فى حدود اختصاصه، ولا يقحم نفسه فى اختصاص الآخرين .. .. فالطبيب لا يفتى فى مسألة هندسية. والكيميائى لا يفتى فى مشكلة فلكية. والمجتمعات الإنسانية تستفيد من تنوع تخصصات

أبنائها ومجتمعاتنا الإسلامية أحوج ما تكون إلى التنوع فى التخصص. وليس عيبا أن نرسل بأبنائنا إلى أوربا و أمريكا لمعرفة المزيد من تكنولوجيا العصر، وخاصة أن العلم ليس وقفا على أمة بعينها، بل هو تراث مشترك تساهم فيه كل جماعة.

* * *

الفكر والعقل

من أوضح سمات القرآن الكريم التى لفتت نظر الباحثين فى القرآن، من المسلمين وغير المسلمين .. هى الإشادة بالعقل، وتوجيه النظر إلى استخدامه فيما يفيد وينفع .. فدعا القرآن بطريق مباشر وغير مباشر، إلى تقدير العقل والرجوع إليه.

فيما اختص به من تفكير ..

ويحرص القرآن الكريم على تأكيد هذا المعنى، أنه ليكرر هذه الدعوة بشكل يلفت النظر ويثير الاهتمام. وقد وردت مادة «عقل» بصيغة المضارع: يعقلون، تعقلون، يعقل، نعقل، فى خمسين آية من آيات القرآن الكريم ..

والعقل فى اللغة العربية ضد الحمق.. وسمى العقل عقلاً، لأنه يعقل صاحبه عما لا يحسن. وهو القوة المتهيئة لقبول العلم.

ويشير القرآن إلى العقل بمعانية المختلفة مستخدماً لذلك كل الألفاظ التى تدل عليه، أو تشير إليه من قريب أو بعيد .. من التفكير، والنظر، والتدبير، والرأى، والحكمة، والتذكر، والعلم، والفقه، والرشد، والبصر.. إلى غير ذلك من الألفاظ التى تدور حول الوظائف العقلية على اختلاف معانيها وخصائصها وظلالها، مما يعتبر إيحاءات قوية بدور العقل، وأهميته بالنسبة للإنسان. «والقرآن الكريم» لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه. ولا تأتى الإشارة إليه عارضة و لا مقتضبة فى سياق الآية، بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر فى كل

معرض من معارض الأمر والنهى التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله.. أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه .. ولا يأتى تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة. بل هى تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها .. وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص فى مواطن الخطاب ومناسباته ..

فلا ينحصر خطاب العقل فى العقل الوازع .. ولا فى العقل المدرك.. ولا فى العقل الذى يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح.

بل يضم الخطاب فى الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنسانى من خاصة أو وظيفة ..

والعقل فى مدلول لفظه العام: ملكة يناط بها الوازع الأخلاقى أو المنع عن المحظور و المنكر. ومن هنا كان اشتقاقه من مادة «عقل» التى يؤخذ منها العقال، وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية أن تتوارد فى اللغات الإنسانية الكبرى التى يتكلم بها مئات الملايين من البشر ..

ومن خصائص العقل ملكة الإدراك التى يناط بها الفهم والتصور وهى عن كونها لازمة لإدراك الوازع الأخلاقى، وإدراك أسبابه وعواقبه. تستقبل أحيانا بإدراك الأمور فيما ليس له بالأوامر والنواهى، أو بالحسنات والسيئات ..

ومن خصائص العقل أنه يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره، ويبنى عليها نتائجه وأحكامه وهذه الخصائص فى جملتها تجمعها ملكة «الحكم» وتتصل بها ملكة الحكمة .. وتتصل كذلك بالعقل الوازع إذا انتهت حكمة الحكيم به إلى العلم بما يحسن وما يقبح، وما ينبغى له أن يطلبه، وما ينبغى له أن يأباه.

ومن أعلى خصائص العقل الإنسانى «الرشد» وهو مقابل لتمام التكوين فى العقل الرشيد .. وظيفة الرشد فوق وظيفة العقل الوازع، والعقل المدرك والعقل الحكيم .. لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف، وعليها مزيد من النضج والتمام والتمييز بميزة الرشاد، حيث لا نقص ولا اختلال .. .

فريضة التفكير فى القرآن الكريم، تشمل العقل الإنسانى بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها. فهو يخاطب العقل الوازع، والعقل المدرك، والعقل الحكيم، والعقل الرشيد، ولا يذكر العقل عرضا مقتضبا. بل يذكر مقصودًا مفصلاً على نحو لا نظير له فى كتاب من كتب الأديان»[1] .

لأن الكتاب الذى ميز الإنسان بخاصة التكليف، هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب العقل لكل ملكة من ملكاته، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون، قبل أن يصبح العقل درساً يتقصاه الدَّارسون كُنْهاً وعملاً، وأثراً فى داخله وفيما خرج عنه، وفيما يصدر وما يئول إليه ..

العقل وازع يعقل صاحبه عما يأباه له التكليف ..

العقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء، وفى بواطن الأمور ..

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال ..

العقل رؤية وتدبير ..

العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار ..

والعقل ذكرى تأخذ من الماضى للحاضر، وتجمع العبرة مما كان لما يكون وتحفظ وتعى وتبدئ وتعيد ..

(١) التفكير فريضة إسلامية. عباس العقاد. بتصرف..

والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف، وكل أمر بمعروف، وكل نهى عن محظور ..

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أليس منكم رجل رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله التى يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء، ومن أمر أنفسهم، ومن أمر خالقهم، وخالق الأرض والسماء ؟..[1].

والعقل الذى يخاطبه الإسلام هو العقل الذى يعصم الضمير، ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويتبصر ويتدبر ويحسن الإدراك والرؤية ..

وإنه هو العقل الذى يقابله الجمود والعنت والضلال. وليس بالعقل الذى قصاراه من الإدراك أنه يقابل الجنون.. فإن الجنون يسقط التكليف فى جميع الأديان والشرائع، وفى كل عرف وسنة ولكن الجمود والعنت والضلال غير مسقط للتكليف فى الإسلام وليس لأحد أن يعتذر بها كما يعتذر للمجنون بجنونه، فإنها لا تدفع الملامة، ولا تمنع المؤاخذة بالتقصير.. [2].

ولما كان العقل فى الإسلام له هذه العناية الفائقة من التقدير، فقد اتخذ له الإسلام منهجاً فريداً، فى تحريره ليظل العقل عاقلاً، والفكر راشداً .. وهذا المنهج الإسلامى يقوم على دعائم أساسية من شأنها حراسة العقل حتى لا يضل فى المتاهات الفلسفية ..

. ومن شأنها أيضاً ترشيد الفكر حتى يعمل فى ميادين الخير، وما يفيد المجتمع الإسلامى والإنسانى علمًا و حضارة وازدهاراً..

---

(١) الإنسان فى القرآن. عباس العقاد . ص ٢٤ . الكتاب العربى بيروت .

(٢) التفكير فريضة إسلامية . عباس العقاد ..

وأول دعائم المنهج الإسلامى فى تحرير العقل والفكر .. هو تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى، وسيطرة التبعية العمياء، وتربيته تزبية إسلامية، تقوم على حرية الفكر، واستقلال الإرادة. ليكمل بذلك العقل، ويستقيم التفكير، وتكمل الشخصية الإنسانية .. لأن كمال العقل، واستقامة التفكير، أساس فى صحة العقيدة وكمال التدين، ومعرفة الحق الذى يجب أن يتبع، ومعرفة الباطل الذى يجب أن يجتنب ..

وقد عنى الإسلام ببناء تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى عناية كبرى، فجعل البرهان أساس الإيمان الصحيح .. وبيّن أن كل اعتقاد أو عمل لا يقوم على دلائل الحق فهو مردود، وأنذر الذين يجادلون فى اللّه بغير علم ولا كتاب.

قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨، ٩].

والدعامة الثانية فى المنهج الإسلامى .. هى تحرير الإنسان من أصفاد الجهل وظلمته .. لأن الجهل يقتل مواهب الفكر والنظر، ويطفئ نور القلوب، ويعمى البصائر، ويميت عناصر الحياة والقوة فى الأفراد والجماعات والأمم .. ويفسد على الناس مناهج الاستقامة، والسلوك الحسن .. والجهل هو الذى يجعل النفوس مستعدة لقبول الزيف والبدع والأهواء والخرافات والأساطير ..

قال تعالى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

والدعامة الثالثة فى المنهج الإسلامى .. تحرير الإنسان من طاعة الأهواء، والانقياد الأعمى لمغرياتها .. لأن طاعة الأهواء من اقوى عوامل انحراف الإنسان فى سلوكه والتوائه فى نظره وتفكيره وهؤلاء الذين

يطيعون الأهواء لا يستقيم لهم رأى ولا تعتدل لديهم موازين، ولا يخضعون لحق ليس فى جانبهم .. ولهذا عنى الإسلام بتحذير الناس من اتباع الهوى، ونص على ضلالهم وانحرافهم.

فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وعن عبد اللّه بن عمر، أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

قال الحافظ الإمام ابن رجب: إن الإنسان لا يكون مؤمنا كل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهى وغيرها فيحب ما أمر به، ويكره ما نهى عنه ..».

وإذا كان من شأن هذا المنهج الإسلامى أن يظهر العقل، ويقوم الفكر، ويسير به فى الطريق المستقيم .. فإن الإسلام اتبع ذلك بمبادئ قيمة، من شأنها أن تصل بالناس إلى طريق الحق والهدى والخير والسلام..

أولا: إن الناس فى الفهم والتفكير وإدراك حقائق الأشياء لن يكونوا متماثلين، ولا متشابهين .. لأن الناس على درجات مختلفة، ومراتب متباينة .. فهناك فريق من الناس قد لا تهئ له حالته والظروف المحيطة به إلا شذرات من المعرفة .. وثمة فريق آخر لم تعده وراثته إلا للسطحى من الأشياء .. وكم من الناس من قصرته البيئة على القشور من الحقائق .. وكم من الناس حصرته التربية فى دائرة ضيقة من المرئيات .. وهناك من سجنته الخرافات والأساطير .. ومن الناس من جرفه تيار المادة، فلم يعد يرى الأشياء إلا بمنظار مادى .. لهذا طالب الإسلام مختلف المستويات الإنسانية بالنظر والتأمل والتفكير فى ملكوت السموات والأرض ..

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ – ٨]

وهناك كثير من الآيات التى تدعو إلى التفكير والنظر فى السماوات والأرض، وما خلق الله فيهما ليصل الإنسان إلى الإيمان بالله، فيرتقى إلى السمو والكمال.

والإنسان بدون إيمان بالله لا قيمة له، ولا اعتبار، ولهذا نرى المجتمعات الشيوعية والاشتراكية وغيرها من المجتمعات المادية والإلحادية، تساق كما تساق السائمة ومن الذى يسوقها ؟ قطيع من الذئاب الحمراء.. وقد حرمت هذه المجتمعات من التفكير والنظر، ولم يعد لأفرادها أى شأن..

ثانيا: لم يكتف الإسلام بتوجيه الناس إلى النظر والتفكر والتدبر. بل استنهض العقول ووجه الأفهام، وأيقظ الحواس، ونبه المشاعر، وذلك بالتعقيب على بيان الآيات الكونية والتشريعية بمثل:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

ثالثا: بشر الإسلام الذين يستمعون القول فينظرون إليه نظر البصير، ويتبعون منه ما يدل على الحق، ويهدى إلى الرشد ..

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

وهكذا نرى أن الإسلام قد عمل على تطهير النفوس من الأغراض الخفية، والأهواء الدفينة .. لأن ذلك من أكبر العوامل فى اعتدال النظر واستقامة التفكير .. ومن هنا كانت حملة الإسلام شديدة على الذين لا يستعملون عقولهم، وما وهب الله لهم من قدرات ذهنية .. ضاربين فى بيداء الضلال، منقادين وراء سراب كل البدع والأهواء من المذاهب الوضعية والأفكار المستوردة ..

والإسلام يريد من الناس، كل الناس أن يعتمدوا على اليقين .. لا الظن. لأن الظن لا يغنى شيئا ..

وإذا كان الإسلام يدعو إلى تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى وسيطرة التبعية العمياء - كما عرفنا فى الدعامة الأولى من دعائم المنهج الإسلامى فى تحرير العقل - فان ذلك يعنى أن التقليد الذى ذمه الإسلام. هو التقليد الذى لا يميز بين الخير والشر، ولكل ما هب ودب من (موضات) العصر المستوردة ..

أما تقليد أهل الحق من الأئمة والدعاة الذين استمدوا علومهم من القرآن الكريم، والسنة المطهرة .. فهو من قبيل القدوة الواعية ..

وحرية الفكر التى دعا إليها الإسلام هى الحرية التى تطلق العقول والإفهام من أغلال الحجر العقلى، والكبت الفكرى، وتجلى معالم الحقائق، وتجعل قيادة التوجيه قيادة بناء وإصلاح وإرشاد. تستمد مقوماتها من هدى الإسلام وتعاليمه وتوجيهاته.

وطريق الفكر قد حدده الإسلام بالقرآن والسنة فيما يتعلق بالقضايا الأساسية والاعتقادية فى حياة الناس .. أما ما سوى ذلك فانه يمكن أن يؤخذ عن طريق الحواس والتجربة والعقل الذى يزن كل معطيات الحواس .. ولقد عبر القرآن الكريم عن هذا الطريق بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وهذه الآية تنهى عن اتباع ما لم يقم به علم يستند إلى حجة سمعية، أو رؤية بصرية، أو براهين عقلية، وهى طرق الاستدلال التى تنحصر فى العقليات والسمعيات والمحسوسات ..

لهذا كله أقبل المسلمون على العلم ينشدونه فى مظانه، ووجهوا عزائمهم على الفكر الأصيل. القائم على توجيهات الإسلام، فلم يعرفوا العلمانية ولا أهوائها. ولا يصح أن يعرفوها .. ولم يعرفوا الأفكار المستوردة ..

وأننا نجدهم اهتموا بشىء واحد، وعرفوا شيئا واحدا، وهو الإسلام، والفكر الإسلامى .. فانتبهوا إلى آيات اللّه التشريعية، وآيات اللّه الكونية .. ولم يشغلهم عن ذلك ترف الحضارة، ولم يثن عزائمهم بأساء الحياة .. وأقاموا الحضارة الإسلامية التى تخطت مراحل النهوض فى تاريخ النهوض والأمم ..

واستطاعوا فى سرعة لم يعهد لها مثيل فى التاريخ أن ينتقلوا من أمة الأمية إلى أمة العلم والقيادة الفكرية وأن يصبحوا أساتذة العلم والعالم.

وقادة الفكر والرأى، ورواد المعرفة والعلوم يدرسون العلوم للأجيال كأحسن ما يكون الدرس، ويدونونها للأجيال المقبلة كأجمل ما يكون التأليف والتدوين .. وينشرونها فى شعوب كانت تائهة فى بيداء الجهل.. وبحثوا، ودرسوا، وأضافوا، وجددوا، وابتكروا، فكان ذلك

النتاج الحضارى الأصيل، وقد حققوا ذلك على الرغم من الأحداث العاتية التى حملوا أعباءها والحروب الطاحنة التى خاضوا غمارها ..

لأن الأحداث والخطوب، وإن بلغت ما بلغت، لا تستطيع أن تقف فى طريق العقائد التى انطوت عليها القلوب، أن تمنع العزائم القوية من الوصول إلى أغراضها وأهدافها .. ولعل القارئ يعرف أنه لأول مرة فى تاريخ الإنسانية ترى الدنيا هذه الخطوة الجبارة..

وذلك أن التاريخ الفكرى فى الأمم المختلفة، كان يسلك سبيلا واحدة، ويتدرج درجات معينة .. حتى لقد جد الباحثون فى العصر الحديث فى استخراج قوانين طبيعية لسير العقل البشرى فى الأمم .. وذكروا أن الأطوار التى تمر بها الأمم خمسة:

أولاً: عصر سرعة التصديق واعتناق الخرافات والأوهام ..

ثانياً: عصر الشك، والحيرة، والتحرى ..

ثالثاً: عصر العقيدة والإيمان ..

رابعاً: عصر العقل والفكر والحضارة ..

خامساً: عصر الهرم والشيخوخة ..

وإذا أراد أحد من الدارسين أن يطبق هذه القوانين التى استنبطها العلماء المتتبعون لحركة تطور الحضارات. إذا أراد أن يطبقها على الفكر الإسلامى .. وجد ذلك غير ممكن لأن الفكر الإسلامى مستمد من تعاليم القرآن الكريم، وسنة النبى الأمين .. وما كان مستمدا من الإسلام كان أقوى من الأطوار التى جاء بها الباحثون ..

تقول الكاتبة الألمانية الدكتورة سيجريد هونكه:

«أن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء من العدم، من أعجب النهضات الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى، فسيادة

أبناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة فى نوعها وان الإنسان ليقف حائرا أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة، والتى يحار الإنسان فى تعليلها وتكييفها» ..

والفكر الإسلامى الأصيل يقوم على الثقافة القرآنية وهدى رسول اللّه محمد ﷺ .. ولهذا كان الفكر الإسلامى لا يقبل الزيف .. ولا الخلط بينه وبين غيره من الأفكار.. كما لا يقبل أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه..

والفكر الإسلامى، غنى كل الغنى .. كامل متكامل، يفى بحاجات الإنسانية ولكن هذا الفكر الأصيل فى حاجة إلى رجال مؤمنين، لا يتأثرون بالسراب الخادع، ولا ينخدعون بمعروضات الأمم، التى تتفنن فى عرض أفكارها .. وبعد هذا كله .. نحن بحاجة إلى رجال يحسنون عرض الفكر الإسلامى حتى لا يتأثر الناس بالذوبان والانسلاخ .. إن فكر الأمة الإسلامية، يعانى أزمة نفسية حادة كما يعانى اضطرابا وذلك نتيجة لارتماء الكثير فى أحضان الاشتراكية والثورية واليسار واليمين، وغيرها من الأفكار التى دبجها سماسرة الإلحاد، والتخريب الشيوعى. وباتت المجتمعات الإسلامية تشهد تقلبات وانقلابات، بين عشية وضحاها..

فهذه ديمقراطية، ثم اشتراكية ثم شعبية .. ثم .. ثم .. اضطراب وتخلل وتصفية للفكر الإسلامى. بل الأدهى من هذا، رأينا، وشاهدنا، وسمعنا عن رجال الفكر الإسلامى يساقون إلى أعواد المشانق لتقطع منها الرؤوس المفكرة، وتحرق كتبهم ومؤلفاتهم، لأن بها فكرًا إسلاميًا .. وبعض الجامعات فى البلاد الإسلامية، تعمل على تصفية الفكر الإسلامى وقطع جذوره..

وما على الغيورين من أبناء الأمة إلا أن يضاعفوا الجهود ويبذلوا كل نفيس فى تطهير الفكر الإسلامى .. ولا شك أن المسلمين فى يقظة فكرية واعية تحتاج إلى رعاية..

* * *

الثقافة الإسلامية

أصل مادة التثقيف فى اللغة العربية تفيد التشذيب والتهذيب والتقويم والحذق والفطانة ..

والمعاجم اللغوية تشير إلى إنها: المعارف والعلوم والفنون. وإنها تشمل كل ما يتصل بالروح والفكر والعقل والذوق والمشاعر .. وهى حصيلة الحياة الإنسانية فى مجالات الحياة كلها.. الحياة الروحية والفكرية واللغوية والأدبية والفنية. ولها صورها التى تتعدد وتلاقى بين الشعوب والجماعات، والتى يتصل بعضها بتراث الإنسانية كلها، ويتصل بعضها الآخر بحياة جماعات بذاتها دون سواها ..

والثقافة الإسلامية تستمد كل خصائصها ومقوماتها من القرآن الكريم .. وعلى القرآن تعتمد فى صمودها أمام تحديات كل عصر .. وعلى القرآن تعتمد فى انطلاقها وتفاعلها وعطائها .. والثقافة الإسلامية ثقافة إنسانية وعالمية، تتميز بالشمول والتوازن والإيجابية والفاعلية .. وقد انطوت على طاقة روحية، جعلت منها قوة فاعلة بل أن فاعليتها فى هذه الناحية، شملت حياة الأفراد وحياة الجماعات من جميع الجوانب.

والشيء المهم فى هذه القوة الفاعلة، أنها كانت إصلاحا جذريا يمس الأوضاع فى حياة الناس ..

يضاف إلى ذلك أن الثقافة الإسلامية تمتد على مساحة الدنيا والآخرة.. وهذا الامتداد الزمانى والمكانى الموغل فى العمق جعل الثقافة الإسلامية تختلف عن ثقافات بعضها يتوغل فى ماديات الحياة، ثم يضفى

عليها مسحة من العبادة والفلسفة وبعضها الآخر يسلك طريق الروحية التجريدية ..

أما الثقافة الإسلامية فقد جمعت بين الروح والمادة، ولهذا لائمت حياة الناس وصارت أكثر التصاقا بالحياة فى مفهومها الحقيقى، وصورتها الواقعة .. وأصبحت أيضاً على اتصال دائم بالبناء الحضارى فى كل الشئون ..

ولما كان الإسلام دين قيم، وضوابط سلوكية، مادية ومعنوية كانت الثقافة الإسلامية موجهة ومربية، تتصل بحياة الأفراد، وحياة الجماعات.

ومن أبرز القيم التى استندت إليها الثقافة الإسلامية فكرة القيمة الذاتية للإنسان .. واستنادها إلى فكرة المسئولية الفردية، والتكليف، ثم فكرة الإخاء التى تجعل الإنسان المسلم ينتمى إلى جماعة المسلمين، ويحس بأنه عضو من أعضاء الجماعة المسلمة.. فهو جزء من كل يكمله ويكتمل به، ويعطيه ويأخذ منه، ويحميه ويحتمى به..

وليس فى الثقافة الإسلامية انفصال بين مسئولية الفرد نحو المجتمع، ومسئولية المجتمع نحو الفرد.. لأن هاتين المسئوليتين هما أولى وسائل الإصلاح العام فى الإسلام..

ومن هذا المنطلق كانت الثقافة الإسلامية، لا تعترف بالقهرية التى يدمج بها الفرد فى المجتمع قسرا ورغما عنه كما فى الشيوعية، لأن الشيوعية من الوجهتين العملية والنظرية تستغنى عن الفرد إن لم يخدم غرض الدولة أو إن لم يتبع طريقة الحزب دون نقاش.

ومن وراء كل ذلك تمتاز الثقافة الإسلامية بأن كل مقوماتها، الجوهرية تنبع من وحى رسالة الإسلام.. ورسالة الإسلام هى التى تمدها بالقوة والعطاء، وتوجهها إلى الموازنة بين مطالب الروح ومطالب البدن. وهى التى تبعدها عن الزهد المعطل للحركة والعمل..

فهى إذن تختلف عن غيرها من الثقافات، حيث تأخذ فى الاعتبار تهذيب الجنس البشرى كله، والوصول به إلى الرقى والفلاح.. يقول العالم الإنجليزى مارمادوك بيكتهول، فى حديث عن الثقافة الإسلامية «وأنا لا أعنى بالثقافة الإسلامية تلك الثقافة التى بلغها فى أى وقت قوم يقرون بالإسلام مهما كانت مصادر هذه الثقافة بل أعنى بها ذلك الضرب من الثقافة التى يأمر بها الدين، الذى جعل من التقدم الإنسانى غايته الواضحة العلنية.

«أن كل من درس القرآن الكريم لا يستطيع إلا أن يعد جميع من يسيرون على هديه و يطيعون ما جاء فيه بالنجاح والفلاح فى الدنيا والآخرة، وانه لا يهدف إلى شى أدنى من فلاح الإنسانية بأسرها ، وأن هذا النجاح إنما يتحقق عن طريق تهذيب مواهب الإنسان و كفاءاته».

«إن الثقافة الإسلامية تختلف عن غيرها من الثقافات فى انه لا يمكن أن تكون إطلاقا هدف الفرد المثقف و غايته لأن هدفها - كما هو محدد بوضوح - ليس تهذيب الفرد أو الجماعة بل الجنس البشرى بأكمله، وما من كمية من المؤلفات الأدبية أو الفنية، فى أيما بلد يمكن أن تعتبر المبرر لإسلاميته طالما بقيت فيه ذرة من الإثم أو الظلم أو التعصب، وما من انتصارات حربية أو سلبية بالغة ما بلغت من الروعة يمكن أن تذكر على أنها من حصاد الإسلام، ذلك أن للإسلام غايات أوسع، ونظرات أجل وأعظم .. وهو لا يهدف إلى ما هو أدنى من الأخوة الإنسانية، ومع ذلك فإن الإسلام كدين يشجع الإنسان على بذل جهده فى سبيل تحسين ذاته وترقية الإنسانية عامة بأكثر مما يشجعه على ذلك أى دين آخر. وهو منذ أن أصبح دولة فى العالم، أعطى من النتائج الثقافية ما يمكن مقارنته بالنتائج التى أعطتها سائر الأديان والحضارات والفلسفات مجتمعة» (١) ..

(١) الثقافة الإسلامية من بعض زواياها ص ٢١،٢٢ بتصرف. طبع كراتشى. مجموعة بحوث.

ويقول العالم الإنجليزى بورك: «القرآن الكريم دستور يضبط سلوك المسلمين الذين يجب أن تكون جميع أفعالهم بمقتضى تعاليم القرآن الكريم .. أما كون المسلمين يعتبرون أن قوانين القرآن ثابتة ومعصومة عن الخطأ، فيتضح من الحقيقة القائلة بأنه بالرغم من انقضاء ثلاثة عشر (أربعة عشر) قرنًا على نزول القرآن الكريم، فإنه لم يتعرض لأقل تغيير أو تبديل. وبأن كل كلمة من كلماته وكل حركة من حركاته قد بقيت كما خرجت من بين شفتي رسول اللّه ﷺ، وسيبقى هكذا دون أى تبديل أو تحريف. القرآن الكريم خالص من التدخل الإنسانى، وهذه حقيقة لا يمكن أن تقال لا كلياً ولا جزئيًا عن سائر الكتب المقدسة للأديان الأخرى» ...

«وهذا الشعور بالمعصومية من الخطأ، وبالخلود الذى يوصى به القرآن الكريم، يزيد من قوة القوانين الإسلامية، وينمى الخلق الإنسانى .. بأن يجعل كل مسلم يدرك مسئوليته الخاصة، وهذا الوعى الخلقى يخلق شعورًا بالبر والتقوى يعتبره الإسلام أسمى ضروب الفضيلة».

والإسلام يفرض على كل مسلم أن لا يفعل إلا الشيء الصحيح مهما كان كريها وعسيرا، كما يعتبر الصدق فى التفكير والعمل الوسيلة اللازمة للخلاص والنجاة .. .

وهذا الشعور بالواجب والبساطة والأمانة يخلق تأثيرا سليما فى صياغة شخصياتنا وأخلاقنا ..

والصبر والشجاعة والثبات والإيمان الذى لا يتزعزع بالخالق يجعل من المسلم نموذجا سليما للرجولة ..

والإسلام دين روحى ذلك بأنه يناشد دائما، ويخاطب مشاعر الإنسان السامية. ويخلق فيه شعوراً بالتقدير والاحترام للأشياء الطيبة فى الحياة .. وهو يطلب إليه - كما يفعل القرآن الكريم دائما - أن يقارن زوال الأشياء وفراغها فى هذا العالم، بالطبيعة الخالدة للتقوى والاستقامة

والخلق .. وأن التسامح إزاء الغير يخلق فى المسلم شعورا بالود والصداقة الذى من دونه لا يطمع أى امرئ فى أن يدخل الجنة. ولقد أثبت المسلم بوصفه مواطنا فى هذا العالم أنه يملك الفرقة والصداقة إلى حد مذهل. هذه الصفة التى جعلته موضع الإعزاز فى كل مكان ساقه القدر إليه»(١)

ويقول الأستاذ ليوبولد فايس الذى أسلم وتسمى باسم محمد أسد «يخبرنا التاريخ أن جميع الثقافات الإنسانية، وجميع المدنيات، أجسام عضوية تشبه الكائنات الحية .. أنها تمر فى جميع أدوار الحياة العضوية التى يجب أن تمر بها. أنها تولد، ثم تشب وتنضج ثم يدركها البلى فى آخر الأمر .. فالثقافات كالنبات الذى يذوى ثم يستحيل ترابا. تموت فى أواخر أيامها، وتفسح المجال لثقافات أخرى ولدت حديثا .. أهذا إذن حال الإسلام ؟ ربما ظهرت كذلك عند إلقاء أول نظرة سطحية .. مما لا شك فيه أن الثقافة الإسلامية شهدت نهضة مجيدة، وعهد آمن وازدهار. وكان لها من القوة ما يلهم الرجال جلائل الأعمال، وأنواع التضحية ولقد غيرت معالم الشعوب، وخلقت دولا جديدة. ثم سكنت وركدت، وأصبحت كلمة جوفاء ..

إذا كنا نعتقد أن الإسلام ليس مدنية من المدنيات الأخرى، وليس نتاجا بسيطا لآراء البشر وجهودهم. بل هو شرع سنة اللّه لتعمل به الشعوب فى كل مكان وزمان. فان الموقف يتبدل تماما .. وإذا كانت الثقافة الإسلامية - فى اعتقادنا - نتيجة لاتباعنا شرعاً منزلاً. فإننا حينئذ لا نستطيع أبدا أن نقول: أنها كسائر الثقافات خاضعة لمرور الزمن، ومقيدة بقوانين الحياة العضوية .. ثم أن ما يظهر انحلالاً فى الإسلام ليس إلا موتاً وخلاءً يحلان فى قلوبنا التى بلغ من خمولها وكسلها أنها لا تستمع إلى الصوت الأزلى .. ثم ليس ثمة علامة تدل على أن الإنسانية - مع نموها الحاضر - قد استطاعت أن تشب عن

(١) الثقافة الإسلامية من بعض زواياها ص٦٩

الإسلام .. أنها لم تستطع أن تبنى فكـرة الإخـاء الإنسـانى علـى أسـاس عملى، كما استطاع الإسلام أن يفعل حينما آتى بفكرة القوميـة العليـا: «الأمة» .. إنها لم تستطع أن تشـيد صرحـا اجتماعيـا يتضـاءل التصـادم والاحتكـاك بـين أهلـه فعـلا علـى مثـال مـا تم فـى النظـام الاجتمـاعى الإسـلامى .. أنـها لم تسـتطع أن ترفـع قـدر الإنسـان، ولا أن تزيـد فـى شعوره بالأمن، ولا فى رجائه الروحى وسعادته ..

ففى جميع هذه الأمور نرى الجنـس البشـرى فـى كـل مـا وصـل إليـه مقصـرا كثـيرا عـن المنـهج الإسـلامى .. فـأين مـا يـبرر القـول إذن بـأن الإسلام قد ذهبت أيامه؟..

أذلك لأن أسسه دينية خالصة، والاتجاه الدينى زى غير شائع اليوم؟

ولكن إذا رأينا نظاماً بنى على الديـن، قـد اسـتطاع أن يقـدم منـهاجا عمليًا للحياة أتم وأمتن وأصلح للمزاج النفسانى فـى الإنسـان، مـن كـل شئ آخـر يمكـن العقـل البشـرى أن يـأتى بـه عـن طريـق الإصـلاح والاقتراح.. أفلا يكون هذا حجة بالغة فى ميدان الاستشراف الدينى ..

لقد تأيد الإسلام – ولدينا جميع الأدلـة علـى ذلـك – بمـا وصـل إليـه الإنسان من أنواع الإنتاج الإنسانى، لأن الإسلام كشـف عنـها، وأشـار إليها على أنها مستحبة قبل أن يصل إليها الناس بزمن طويل ..

ولقد تأيد أيضاً على السواء بما وقع أثناء التطور الإنسانى مـن قصـور وأخطاء وعثرات. لأنه كـان قـد رفـع الصـوت عاليـا واضحـا بـالتحذير منها. من قبل أن تتحقق البشرية أن هذه أخطاء .. وإذا صرفنا النظر عن الاعتقاد الدينى نجد من وجهة نظر عقلية محضة كـل تشـويق إلى أن نتبـع الهدى الإسلامى، بصورة عملية، وبثقة تامة.

نحن لا نحتـاج إلى فـرض إصـلاح علـى الإسـلام – كمـا يظـن بعـض المسلمين – لأن الإسلام كامل بنفسه من قبل. أما الذى نحتاج إليه فعـلا

فهو إصلاح موقفنا من الدين بمعالجة كسلنا، وقصر نظرنا، وبكلمة واحدة.

معالجة مساوئنا..

أن الإسلام كمؤسسة روحية واجتماعية عنى عن كل تحسين، وأن كل تغيير فى مثل هذه الحال يطرأ على مدركاته وعلى تنظيمه الاجتماعى، بإفتاءات من ثقافة أجنبية ولو بإشراق ضئيل سيكون مدعاة إلى الأسف الشديد، وسترجع الخسارة حتما علينا نحن».(١)

فالثقافة الإسلامية. ثقافة حية، تقوم على شمول العقيدة الإسلامية فى ظواهرها الفردية والاجتماعية .. وشمول العقيدة فى الإسلام ميزة خاصة، أوحت إلى المثقف المسلم بالاستراحة من خصام العقائد والمذاهب الفكرية البشرية .. وقد واجهت الثقافة الإسلامية فى الماضى تحديات خطيرة صمدت لها، واستطاعت فى قوة أن تثبت لها وتقضى عليها نظرًا لتمسك المسلمين بثقافتهم .. ويمكن إجمال هذه التحديات فى: حملات الزندقة، والإلحاد، والتشكيل فى العقيدة، والغزو الفكرى اليونانى، والذى أعجب به الكثير من المسلمين.

ولازالت الثقافة الإسلامية، تواجه تحديات خطيرة، وتكالباً مسعوراً، وغزواً فكرياً شرساً..

فالحضارة الغربية بشتى مؤسساتها، تعمل على خلق أدوات الضرب لأى بادرة ثقافة إسلامية .. وعلى بذر بذور الشك فى كل اتجاه وقد كان الخطر على الثقافة من الغزو الفكرى، كامنا أولا فى طبيعة الثقافة الغربية واختلافها فى معظم مبادئها عن الثقافة الإسلامية ويكمن الخطر ثانيا فى تبنى الحضارة الغربية للمؤسسات التعليمية والثقافية التى تبث

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق . تأليف محمد أسد ترجمة عمر فروخ . ص ١٠٩، ١١٠ بتصرف طبع بيروت.

ثقافتها، وتعمل فى الوقت نفسه على إظهار الإسلام بما هو ليس على الحقيقة، وطمس معالمه الصحيحة وتشويه مبادئه المثالية»[1].

ويقول المستشرق البريطانى جب فى كتابه (أين يتجه الإسلام): «والواقع أننا إذا أردنا أن نعرف المقياس الحقيقى للنفوذ الغربى، وتغلغل الثقافة الغربية فى الإسلام كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية .. وعلينا أن نبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التى ابتكرت بدافع من التأثير بالأساليب الغربية بعد أن تهضم وتصبح جزءا حقيقيا من كيان هذه الدول الإسلامية، فتتخذ شكلا يلائم ظروفها .. والسبيل الحقيقى للحكم على مدى التأثير هو أن نتبين إلى أى مدى يجرى التعليم على الأسلوب الغربى وعلى المبادئ الغربية، وعلى التفكير الغربى .. وبذلك فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئا فشيئا، حتى انحصرت فى طقوس محدودة وقد تم معظم هذا التطور تدريجيا من غير وعى وانتباه».

ويقول فى موضع آخر من الكتاب: «أن العالم الإسلامى سيصبح خلال فترة قصيرة علمانيا فى كل مظاهر حياته ما لم يطرأ على الأمور عوامل ليست فى الحسبان فتغير اتجاه التيار» .. انتهى كلام المستشرق البريطانى جب، والذى يبين المحاولات الخطيرة التى رسمت خطوطها لإبعاد الثقافة الإسلامية عن الحياة، ولا شك أن بعض المجتمعات الإسلامية، وفى غيبة ثقافة الإسلام ارتمت عن جهل فى جحيم المذاهب الهدامة وما تولد عنها من مسميات ..

وعودة الأمة الإسلامية إلى الثقافة التى جاء بها القرآن ضرورة تقتضيها الحياة الصحيحة، ولا حياة للمسلمين بدون ثقافة الإسلام..

* * *

(١) معالم الثقافة الإسلامية .. للدكتور عبد الكريم عثمان ..

العلم والمناظرة

المناظرة نوع من الحوار العلمى يدور حول مسألة من مسائل الدين أو موضوع أدبى أو لغوى أو فقهى، وقد كان لمجالس العلم والمناظرة، مكانة سامية فى الدولة الإسلامية وقد تدرجت هذه الحركة العلمية الثقافية، حتى بلغت ما بلغت فى العصر العباسى وصارت وسيلة من وسائل تحقيق المسائل الفقهية واللغوية والأدبية ..

ولا شك أن خلفاء العصر العباسى، عملوا على عقد تلك المجالس، إيناسا بالعلم وتنشيطًا للحركة العلمية، وحبا فى استكشاف المواهب واستقطاب رواد الفكر والأدب ..

وفى بادئ الأمر كانت مجالس العلم مجالس للمذاكرة والمراجعة، تنعقد فى المساجد، وما يلحق بها من مدارس .. ثم حبب إلى الخلفاء استقدام العلماء إلى مجالسهم وقصورهم، وحاكى الخلفاء والأمراء، علية الناس فى المملكة الإسلامية.

وهذه المجالس والمناظرات، قد ازدهرت تبعا لازدهار الشغف العلمى وطمعا فى منائح الخلفاء والأمراء، ونيل الحظوة ورغبة فى الوصول إلى الحق .. وقد ساعد على ذلك ..

أولاً: كانت أكثر المسائل العلمية لم تقرر بعد، ولم تتخذ شكلا ثابتا، ولم تعرض على مائدة البحث والمناقشة والتحليل ..

ثانياً: كان الخلفاء والأمراء يساهمون فى الحركة العلمية ويشتركون فى الرأى ويؤيدون بعضا، ويفندون بعضا .. وهذا قد أدى إلى استعداد العلماء للمناظرة والتسلح بأسلحة المعرفة، ورغبة فى الشهرة والحظوة ..

ثالثاً: كان الخلاف شديدا بين الأمصار .. من بصريين وكوفيين وحجازيين وعراقيين وشاميين ومصريين .. وكانت العصبية للبلاد وللنمط العلمى فيها ذات قدرة فعالة وهذا كله كان وقودا صالحا للحوار والمناظرة والبحث والنظر وكثيرا ماكانت مجالس العلم والمناظرة، تعقد لتحقيق مسائل الدين، التى يتجادل فيها المتجادلون .. وللرد على الزنادقة والملحدين .. كما كانت وسيلة لتحقيق مسائل أدبية ونحوية وفقهية.

وقد ولع الرشيد والبرامكة بهذا اللون من العلم ولعا شديدا، وكانت مجالسهم مجالا فسيحا لما تجود به العقول والقرائح وأفكار الباحثين والدارسين.

وكان ليحيى بن خالد البرمكى .. مجلس للمناظرة، يجتمع فيه المتكلمون وغيرهم من أهل النحل .. فيتباحثون فى الكون والحياة، وغير ذلك .. وفى عصر المأمون، زادت العناية بمجالس العلم والمناظرة .. لأن المأمون كان مثقفا واسع الثقافة، يجيد كثيرا من فروع المعرفة، عالماً فى العلوم الشرعية واللغوية والفلسفية، كما كان عالما فى الفلك والكيمياء وغيرهما ..

وقد روى أن المأمون لما دخل بغداد، وقرَّبها قراره، أمر أن يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم، جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته واختير له من الفقهاء لمجالسته، مائة رجل، فما زال يختارهم طبقة بعد طبقة حتى حصل منهم على عشرة ..[1]

---

(١) انظر: تاريخ بغداد . لطيفور ص ٥٧ ..

ويظهر أن المأمون رمى من مجالس العلم والمناظرة، إلى غرض بعيد.. وهو أن تثار بين يديه المسائل الدينية المختلفة، فيسمع من كل رأيه وحججه ثم يفصل فى أوجه الخلاف على ضوء هذه الحجج .. وربما من هذا ألا يكون بعد خلاف.

فقد قال يحيى بن أكثم: أمرنى المأمون عند دخوله بغداد، أن أجمع له وجوه الفقهاء، وأهل العلم، من أهل بغداد، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم، وجلس المأمون فسأل عن مسائل وأفاض فى فنون الحديث والعلم. فلما انقضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين .. قال المأمون: يا أبا محمد (يحيى بن أكثم): كره هذا المجلس الذى جعلناه للنظر طوائف .. وأنى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق اللّه وتأييده على إتمامه سببا لاجتماع هذه الطوائف، على ما هو أرضى وأصلح للدين»[1].

إلا أن هذا التصرف من المأمون، لم يعجب مؤلف كتاب «ضحى الإسلام» أحمد أمين .. فذهب يقول: «فهو بهذا يريد أن يجعل مجلسه مجمعاً علمياً له النظر فى مسائل الخلاف، وله القول الفصل فيها .. وبعبارة أخرى، أراد أن يجعل مجلسه محكمة يتنازع فيها الخصوم، وكل يدلى بحجته. والمتنازع هم العلماء والنزاع حول الرأى الدينى. ثم تحكم المحكمة. فيجب أن ينفذ حكمها كما ينفذ الحكم فى المسائل المادية ويجب أن يذعن المتنازع لحكم المحكمة، فلا يقول قائل برأى إلى ما قضت به المحكمة.

وفات المأمون أن الأمر فى الجدل الدينى والمناظرة العلمية، ليس من السهولة بهذا القدر، وأن الحجة يقتنع بها قوم، ولا يقتنع بها آخرون.. وأن عالما قد يقيم على قوله بينة، ويظن أنها انحصرت فيما قال. فإذا

---

(١) انظر: ضحى الإسلام . أحمد أمين . الجزء الثانى ص ٥٨ الطبعة الثامنة ١٩٧٤ م القاهرة.

عالـم آخر يوفـق إلى بينـة لم تتجـه إليـها أنظـار البـاحثين مـن قبـل، وان صدور الحكم بناء على حجة قيلت فى مجلسه ليس مـن الصـواب تنفيـذه على الغائبين، وإن للناس من الحريـة فـى الـرأى، والاقتنـاع بـه، والدليـل عليه، أكثر مما لهم فى الأمور القضائية المادية»[1].

وقد حكت كتـب الفقـه، وطبقـات الفقـهاء، منـاظرات كثـيرة، بـين اصحـاب مـالك وأصحـاب أبـو حنيفـة، وبـين الفقـهاء المحدثـين، وبـين الشافعى ومحمد بن الحسن وغيرهم .. فرأيناهم يتنـاظرون فـى المسـاجد، وفى حلقات الـدرس، وفـى المنـازل وحـين اجتماعـهم للحـج ويرحلـون فيتناظرون، ويلتقون اتفاقا فيتجادلون..

وذكر ابن السبكى فـى كتابـه «طبقـات الشـافعية» كثـيرا مـن مجـالس المناظرة بين المعتزلة والحنابلة والشافعية وغيرهـم ..

واهتـم الفخـر الـرازى بمسـائل المنـاظرات الفقهيـة وذكـر منـها ثلاثـة وعشرين مسألة فى أحد مؤلفاته.

وذكـر ابـن خلكـان فـى الوفيـات .. ويـاقوت الحمـوى فـى معجـم الأدباء.. والمسعودى فى مروج الذهب .. كثيرا من مجالس المناظرات فى الأدب واللغة .. كذلك فعل السيوطى فى كتاب «الأشباه والنظائر» .. . وفـى الأعـلام الموقعـين، لابـن القيـم .. أشـارة إلى منـاظرات بالمكاتبـة والمراسلة، مثل ما حدث بـين الليـث بـن سـعد إذ يكتـب مـن مصـر إلى مالك فى المدينة يجادلة فى حجية إجماع أهل المدينة ويرد عليه مالك..

وقد ذكرت كتب النحو والصرف مناظرات لغوية بين العلماء.. ومن أمثلة ذلك ما جرى بين سيبويه والكسائى، فى مجلس يحيى الـبرمكى مـن المناظرة المشهورة فى مسألة نحوية، أساسها العبارة الآتية:

---

(١) انظر ضحى الإسلام . أحمد أمين . الجزء الثانى ص٥٨ الطبعة الثامنة ١٩٧٤ م القاهرة.

«كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور .. فإذا هو هى، أو فإذا هو إياها»..

أما سيبويه زعيم نحاة البصريين. فكان لا يرى فى المسألة إلا رأيا واحدا هو «فإذا هو هى» فقط. وقد لعبت الأهواء ألاعيبها فى هذا الجدل العلمى المحض. فحكم للكسائى على سيبويه. وكأنما حكم للكوفة على البصرة.

و من ذلك مناظرة الكسائى والأصمعى، بين يدى الرشيد فى معنى «محرمًا» فى بيت الراعى.

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً   ودعا فلم أر مثله مخذولا

فذهب الكسائى إلى أن محرمًا من الإحرام بالحج .. فضحك من تفسيره الأصمعى وذهب إلى أن المعنى: أن عثمان فى حرمة الإسلام وذمته، لم يأت شيئا يحل دمه .. كما قال عدى بن زيد:

قتلوا كسرى بليلى محرما   غادروه لم يمتع بكفن[1]

كذلك يروى أنه اجتمع الكسائى والاصمعى، عند الرشيد، وكانا معه يقيمان بمقامه ويظعنان بظعنه .. فأنشد الكسائى يوما ابياتا للشاعر أفنون التغلبى:

لو أنى كنت من عاد ومن ارم   غذى سخل ولقمانا وذا جدن
لما وفوا بأخيهم من يهوله   أخا السكون ولا جاروا عن السنن
أنى جزوا عامرا سؤى بفعلهم   أم كيف يجزونى السؤى من الحسن
أم كيف ينفع ما تعطى العلوق به   ريمان أنف إذا ما ضن باللبن

قرأه الكسائى (ريمان انف) بالنصب .. وقال الأصمعى: بالرفع وتجادلا فى ذلك .. [1].

(١) الأشباه والنظائر للسيوطى . ص١٤.

واستمرت مجالس العلم والمناظرة، تؤدى دورها، فى مجتمع اهتم بالعلم والعلماء وصار الناس يتناقلون أخبار تلك المناظرات ويتدارسون ما قيل فيها..... فتوسعت المدارك، وتفتحت العقول، وتنبهت الأذهان.. ووعى الناس قيمة الحكم المبنى على الدليل والبرهان الصادق.

وقد استفاد المجتمع الإسلامى من هذه المناظرات العلمية، فأمدته بالفكر الموضوعى الذى لا يصدق الخرافة، ولا يؤمن بها .. وخلاصة ما نصل إليه ..

أولا: امدت المناظرات الناس بالفكر الموضوعى، والعقلية العلمية التى لا تصدق الخرافة. ولا تؤمن بها ..

ثانيا: كانت سببًا من أسباب الرقى العلمى، وحفز العلماء للبحث والنظر والجد فى تصفية المسائل.

ثالثاً: كان لها أثر كبير فى ترقية اللسان العربى وتنقية الفكر الإسلامى.

رابعا: وسعت دائرة الحركة الفقهية، وكونت أراء قانونية لها قيمتها.

خامسا: عملت على تحرير الناس من أصفاد الجهل وظلمته. لأن الجهل يقتل مواهب الفكر، ويطفئ نور القلوب.

سادسا: ساعدت الناس ودفعتهم على العكوف على ثمرات عقول القدماء، من فلاسفة الأغريق والروم، والفرس، والهنود، يدرسونها ويمحصونها.

* * *

---

(١) ضحى الإسلام . لأحمد أمين . ج٢ ص٥٦ .. الطبعة الثامنة ..

القسم الثانى

جوانب مشرقة من الحضارة الإسلامية

- الحضارة الإسلامية
- التفكير العلمى والكيمياء
- المسلمون وعلم الفلك
- المنهج الرياضى
- علم الطب والجراحة
- التجارة والمعاملات
- المسلمون والأمن الغذائى

لم يخلق الله، سبحانه وتعالى، الإنسان فى هذا الكون .. ليعبث أو يلهو، أو يلعب .. أو ليطغى بقوته وجبروته، أو ليعيش فى أحضان الجهل والاتكالية ..

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١، ٢].

وإنما خلق الله سبحانه وتعالى، الإنسان وركب فيه ما ركب، من قوى الإدراك والعمل، لحكم سامى .. منها: ليكون خليفة فى الأرض يعمل على إصلاحها، واتساع عمرانها، وإظهار أسرار خالق الكون فيها، وتدعيم أواصر الخير، وإقرار السعادة، فى جميع أرجائها.

وقد أرشد إلى هذه الحكمة كثير من آيات القرآن .. . منها قوله تعالى، فى سورة البقرة، وهو يحدث عن مبدأ خلق الإنسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٣].

فهذه الآيات توحى بأن العلم أساس الحياة، وسر النجاح. فالخلافة فى الأرض والسيطرة عليها وتسخير ما فيها، واستغلال خيراتها، وثمراتها وطيباتها أساس ذلك كله العلم لا غير..

وإذا كانت هذه هى مهمة الإنسان فى الحياة، وهى حكمة خلقه، وحكمة الإنعام عليه، بقوى العلم والعمل، وحكمة تسخير الكون وإخضاعه له فى التفكير والتصريف. فلا سبيل إلى قيام الإنسان بهذه المهمة، و تحقيق تلك الحكم إلا بالعلم والمعرفة والعمل ..

و لم يكتف الإسلام بهذا .. بل فتح مجال العلم، للعقل الإنسانى، وتعدى به أسوار الطبيعية، وتغلغل به فى أسرار الحياة ..

قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [عبس: ٢٤].

قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥ - ٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

هذه الآيات وما جرى مجراها، قد فتحت للعقل الإنسانى، آفاق، الكون وبينت له طريق التأمل والمشاهدة والتفكير، فى ملكوت السموات والأرض، لاستنباط الحقائق، وما يفيد المجتمع .. وتلك دعوة صريحة إلى العلم، حظيت بها الإنسانية، منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، ودعوة صريحة صادقة إلى اتباع الأسلوب العلمى..

المعرفة فى الإسلام:

والمعرفة فى الإسلام، لا تقوم على نظرية تحتاج إلى دراسة وتأمل وإنما على أساس التعادل بين الكم والكيف، وبين المادة والروح، وبين الغاية والسبب، وبين الدنيا والآخرة.. فلا إفراط ولا تفريط، لقد ربط الإسلام بين الحواس المرهفة، وبين العقل الباحث المنظم أو الوجدان النقى، وكل ما جاء فى القرآن فى الحث على التفكر والتفكير، دليل على مكانة العقل، والعلم، والمعرفة فى نظر الإسلام، إذ العقل آلة التفكير، والعلم ثمرة التفكير. فكل ما ورد فى القرآن، حث على التفكير، وهو إعلان عن فضل العقل، وإيحاء بالعمل على تربيته وتقويته وهو فى الوقت ذاته تسجيل لفضل العلم .. حتى يتمكن الإنسان من الحقائق، وتزول عنه غشاوة الجهل، ويتحرر من رق الأوهام، والخرافات، التى لا صلة لها بواقع الحياة.

وبهذا كان الإسلام دين الفكر، والعقل، والعلم.. وقد ارتفع القرآن بالعقل وقدره حق التقدير، وجعله ميزة الإنسان.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

وبناء على التوجيهات القرآنية، للناس بالنظر والدراسة.. انطلق المسلمون يدرسون ويبحثون، ويقارنون، ويغربلون، ويقعدون القواعد، ويؤصلون الأصول.

ولقد اشتملت توجيهات القرآن العقلية، على أصول ومبادئ عامة، صلحت لأن تكون منهجا فكرياً سليماً، حدد به المسلمون موقفهم من مشاكل الكون والحياة.

واستطاعت هذه التوجيهات أن تمكن المسلمين، من الاستفادة من تلك الدرة الإلهية، التى منحها الله للإنسان، وهى العقل. فنمته، وجعلته يمارس الوظيفة الأساسية التى خلق من أجلها حتى كانت للمسلمين

حضارة وعلوم ومخترعات. حضارة عالمية لن ينسى التاريخ دورها فى تحويل مجرى الإنسانية، ولن تنسى الإنسانية دور المسلمين فى بناء الحضارة، بأصالة وعمق..

كانت هناك تشريعات، وفلسفة وقوانين، وطب، وفلك، وأدب، واجتماع ورياضيات، وتاريخ، وجغرافيا، وفنون جميلة، وآداب السلوك والاجتماع..

وكان لكل هذه العلوم والفلسفات، أساتذة عباقرة، كأئمة الحديث، ورجال الفقه الذين ضبطوا أساليب النقد، وقعدوا قواعد التشريع..

وفوق هذا وذاك.. فقد كان المسلمون هم واضعى طرق البحث العلمى التجريبى الذى كان أساسا للحضارة الأوربية الحديثة، ويكفى فى هذا أن نستشهد باعتراف العلامة (بريفولت): «أن الأوربيين درسوا عن العرب طرق البحث العلمى التجريبى وأنه لم يسبقهم إليها باحث أو مفكر».

تلقى المسلمون هذه الينابيع من مصادرها الأصيلة، واستقرت دعائمها فى نفوسهم، فكانت الرائد الأمين للعقول والأفهام، والغذاء الروحى للغرائز والمواهب وهذه الينابيع طبعت الناس على استقلال الإرادة، وحرية الفكر. كما كرهت إليهم التقليد والتبعية العمياء، ووجهت العقول للبحث والإنتاج.. وفتحت لهم ميادين العلوم والفنون. فأقبلوا عليها سراعاً. ودخلوها من كل باب وبهذه النهضة العلمية الجبارة استطاع المسلمون فى سرعة لم يعرف التاريخ لها مثيلا. أن ينتقلوا إلى القيادة الفكرية العالمية، ويصبحوا أساتذة الدنيا. وعباقرة العلوم .. وكان وأصبح هناك قادة وحكام، ومدن وعواصم ومعاهد وجامعات ودول وممالك، لم يشهد التاريخ لها مثيلا.

كل هذا كان بفعل الاتجاهات العقلية التى غرسها الإسلام، والتى أدت إلى تنمية القوى الكامنة فى الإنسان، والتى جعلت من المسلمين أساتذة

للعلوم، يدرسونها للأجيال المعاصرة، كأحسن ما يكون الدرس والتعليم ويدونوها للأجيال المقبلة، كأحسن ما يكون التأليف والتدوين. وينشرونها فى شعوب، كانت تائهة فى عماء الجهل وظلمته. فقد كانت بعوث الأمم، تفد العواصم الإسلامية من كل ناحية فيأخذون عن علمائها ما شاءوا من أفانين العلوم. وألوان المعرفة ثم يعودون إلى بلادهم حاملين إليها مشاعل هذه العلوم التى نفخت فيهم روح الحياة وفتحت لهم طريق الانتفاع بأصلين عظيمين من أصول الإصلاح الإسلامى وهما: حرية الفكر .. واستقلال الإدارة .. فلم تنهض العقول للبحث، و لم تتحرك النفوس للعمل. إلا بعد عرفت أن لها حقا فى طلب الحقائق.

ولقد تلمست أوربا حضارة المسلمين العلمية. فاستقت من روافدها المعرفة، والفلك، الجبر، والهندسة، الكيمياء، والطب، والفلسفة، وعلوم النبات، والحيوان، وسائر أنواع الفنون الحضارية ..

وبنى رجال أوربا، بما تعلموه فى معاهد المسلمين بالأندلس، وبما نقلوه من علوم.. أسس النهضة الحديثة، التى ظهر نجمها فى القرن الثامن عشر وازدهر فى القرن التاسع عشر، وتألق فى القرن العشرين.

والإسلام بدعوته إلى العلم. هو الذى خرج رجال الحضارة، وجهابذة العلم أمثال: ابن الهيثم، والكندى، والفارابى، وابن سينا، والبيرونى، والفرغانى، والطموسى، والبغدادى، والدينورى، والرازى، والقزوينى، والأنطاكى، والزاهراوى، والخوارزمى، والصوفى، وجابر، والجاحظ، وابن البيطار، وابن النفيس، وابن حيان، وابن حمزة، والإدريسى، والمسعودى، وابن بطوطة. وغيرهم من عمالقة التخصص والبحث ..

وهذا ابن الهيثم يبحث فى السهول والأودية. ويجول فيها طولاً وعرضا حتى يضع قواعد علم الضوء ..

وابن الدجيلى يسهر على قمم الجبال العالية، يحدق فى الكواكب والنجوم ليحدد أفلاكها، ويعرف أبعادها.

وابن النفيس يجرى التجارب والاختبارات، حتى يثبت أن الـدم ليـس سائلا مستقراً فى الأوردة والشرايين المبثوثـة فـى الكـائن الحـى. بـل هـو سائل متحرك يدور فــى جميـع أجـزاء الجسـم، وذلـك قبـل أن يكتشـف «هارفى» الدورة الدموية بثلاثة قرون ..

وابن مسكوية يسبق فلاسفة أوربا، وعلمائها بثمانية قـرون فـى علـوم الأخلاق والفلسفة والتهذيب والبيولوجيا.

وجابر بن حيان يحلل عناصر الطبيعة، وتفـاعل المـواد المختلطـة، حتـى يضع أصول علم الكيمياء ..

وابن يونس يسبق العلماء فى اختراع بندول الساعة «الرقاص» ..

هذا كله فى الوقت الذى كانت فيه أوربا، تعيش فى ظلمات الجهل، والفوضوية، والأمية والهمجية والتأخر ولم ينقذ أوربـا مـن ورطتـها التـى كـانت واقعـة فيـها إلا حضـارة المسـلمين، ومـا زالـت أسمـاء العلـوم والمصطلحات التى أعطاها هؤلاء العلماء المسلمون، لغرائب المخترعـات، مازالت حية نابضة، فى جميع اللغات، رغم ما نالها من تحريف وتغيير.

ولقـد سـجل التـاريخ آيـات هـذه الحضـارة الإسـلامية، وشـهد بـــها المنصفـون مـن فلاسـفة العـالم ومؤرخيـه، الذيـن لا يبغـون مـن بحوثــهم ودراساتهم، إلا مرضاة العلم فى ذاتـه. تقـول الكاتبـة الألمانيـة الدكتـورة «سيجريد هونكه»: «أن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نـهض بـها أبنـاء الصحراء من العدم من أعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشـرى، فسـيادة أبنـاء الصحـراء التـى فرضوهـا علــى الشـعوب ذات الثقافات القديمة، وحيدة فى نوعها، وان الإنسان ليقف حائرًا أمـام هـذه المعجزة العقلية الجبارة والتى يحار الإنسان فى تعليلها وتكييفها» .. .

وقالت أيضاً: «وان أوربا تدين للعرب، وللحضارة العربية، وأن الدين الذى فى عنق أوربا وسائر القارات، للعرب كبير جدًا».

وقال العلامة دريبر المدرس فى جامعة (هارفارد) بأمريكا. فى كتابه «المنازعة بين العلم والدين»: «أن نتائج هذه الحركة العلمية، تظهر جليا بالتقدم الباهر الذى نالته الصناعات فى عصرهم، فقد استفادت منها فنون الزراعة فى أساليب الرى والتسميد وتربية الحيوانات، وسنن النظم الزراعية الحكيمة، وإدخال زراعة الأرز وقصب السكر والبن .. وقد انتشرت معاملهم ومصنوعاتهم لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن. وكانوا يذيبون المعادن، ويجودون فى عملها على ما حسنوه وهذبوه، من سبكها وصنعها، وأننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية، ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر .. وان جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوربيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم وكان ملوك أوربا وأمراؤها، يفدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها».

إن هذه الأقوال التى جاءت على لسان علماء أفذاذ لمرضاة العلم فى ذاته تشهد صراحة وضمناً، وجملة وتفصيلاً، لحضارة المسلمين، ومدى فاعلية هذه الحضارة الإسلامية الإنسانية.

وان الأمة الإسلامية، يمكن أن تعود إلى بناء حضارتها المتميزة، لأن المجتمع الإسلامى يعيش اليوم فى صحوة فكرية، ويقظة صحية. وقد حباه الله بأعظم النعم وأعطاه من وسائل الحياة، ما يهيئ لها القدرة على المساهمة فى خدمة الإنسانية إذ يتربع على كنوز ثمينة، ويربض على ثروات معدنية هائلة، ويملك من حقول البترول أجداها نفعاً، وأكثرها ثراء وسخاء، وأقواها تدفقاً وعطاء ويتبوأ استراتيجية هامة ويشغل من خريطة الدنيا، حيزاً جغرافياً عظيماً.

وتلك وغيرها أمور تجعل الأمة الإسلامية، قوة إيجابية، مهيأة للإسهام فى إنقاذ الإنسانية من وهدة الضياع والفوضوية والجهل، والإلحاد، والمذاهب الهدامة.

ولقد وصف المستشرق السويدى «فرناو» العالم الإسلامى بأنه يمثل بموقعه فى قلب قارات ثلاث «قارة وسطى» وهذا تعبير قد لا يرضى عنه علماء الجغرافيا ومع هذا فهو تعبير محمل بالمعانى ..

يقول الدكتور جورج سارطون: «أن المسلمين يمكن أن يعودوا إلى عظمتهم الماضية إذا عادوا إلى فهم حقيقة الحياة فى الإسلام، والعلوم التى حث الإسلام على الأخذ بها».

وقال الدكتور فيليب حتى: «أن الشرق الإسلامى هو اليوم فى مطلع دور جديد فى حياته العلمية، كما أنه فى فجر جديد فى حياته السياسية وهو دور جديد يمكن أن نسميه دور الإبداع والابتكار، ضمن إطار الميراث الخالد، من القيم الدينية والأدبية» ..

والحقيقة التى لا يستساغ إنكارها أن تقدم المسلمين علمياً وحضارياً رهين بعودتهم إلى الإسلام. وكفى.

* * *

التفكير العلمى والكيمياء

يدعى بعض المؤرخين من علماء أوربا أن العصور العلمية تنقسم إلى عصرين رئيسيين:

العصر الأول: العصر الإغريقى ويمتد من سنة ستمائة قبل الميلاد إلى سنة مائتين من الميلاد.

والعصر الثانى: هو عصر النهضة الحديثة التى تبدأ من سنة ألف وأربعمائة وخمسين من الميلاد.

وإذا كان هذا هو ادعاء بعض المؤرخين الأوربيين .. فإن بعض المستشرقين يزعم أن العقلية العلمية لم تتوفر للمسلمين .. وأن التفكير العلمى فى مجال العلوم الموضوعية والكونية والتطبيقية لم تدركه العقلية الإسلامية ..

ولاشك أن هؤلاء المؤرخين قد تناسوا و أغفلوا ما قبل عصر الإغريق، من مصريين وآشوريين، وبابليين وغيرهم ممن أسهموا فى الحضارات الإنسانية .. والعلم الإغريقى لم يبدأ من العدم .. بل لابد وأن تكون سبقته معارف، استطاع الإغريق بما توفر لهم من إمكانات متاحة وبحث ونظر أن ينهلوا منها فى مسيرتهم.

وهؤلاء المؤرخين قد تناسوا وأغفلوا عن عمد العصر الإسلامى الزاهر والذى يعد من أزهى عصور المعرفة فى تاريخ الإنسانية. ذلك أن الإسلام قد رفع من شأن العلم، وقدر العلماء ..

يقول أحد رجال الفكر الإسلامى: «إن تاريخ الفكر الإنسانى وعلومه يؤكد أن النهضة الأوربية الحديثة لم تكن من عدم. كما إنها لم تكن امتدادا مباشرا لحضارة الإغريق والرومان، لأن النهضة الأوربية بدأت فى القرن الخامس عشر. بينما انقرضت الرومانية والإغريقية فى القرن السابع الميلادى وما بينها وهو فترة ثمانية قرون كانت ظلاماً وجهلاً وانحطاطاً ساد أوربا كلها وذلك ما تسميه النهضة الأوربية نفسها: «القرون الوسطى المظلمة» .. هذه الفترة كان يحمل مشعل الثقافة الإنسانية والحضارة العالمية .. العلماء المسلمون فى المشرق الإسلامى ومغربه فى الأندلس .. وكانت اللغة العربية هى اللغة العلمية العالمية ثم أن الأوربيين لم يدرسوا كتب اليونان والأمم المتقدمة إلا مترجمة للعربية أولاً .. ثم ان كثيراً من الكتب العلمية للنهضة الفكرية الإسلامية لكبار الأطباء والرياضيين والكيميائيين والفلكيين والجغرافيين والنباتيين، لا تزال شاهدة موجودة بنسخها الأصلية أو المترجمة إلى اليوم فى دور الكتب الغربية الكبرى فى موسكو وبطرسبرج وبرلين ولاهاى وأكسفورد ولندن وروما وباريس وقرطبة.. ودليل آخر حاضر: ما تحفل به اللغة العربية فى معاجمها العامة من ألفاظ علمية فى مجال الطب وكذلك فى الجبر والهندسة والفلك، ووضع الكلمة إنما يدل على قيام معناها ومدلولها بل هناك مئات من الكلمات العلمية العربية التى دخلت كما هى تماماً أو بشىء من التحريف فى اللغات البرتغالية والأسبانية وحتى الألمانية والفرنسية والإنجليزية» ..

وهذا علم الكيمياء يحظى باهتمام المسلمين فى وقت مبكر من القرن الهجرى الأول. وذلك لما لهذا العلم من الفوائد فى الحياة الإنسانية .. ويرى العلماء الباحثون أن لفظ (كيمياء) مشتق من كلمة «كيمى» التى كانت تدل على أرض مصر السوداء المتشبعة بطمى النيل .. فالعلم الأسود أو الفن الأسود، الذى نسب إلى مصر الزراعية وتربتها، انتقل إلى حضارات أخرى قديمة .. وكان يعنى هذا الفن الكيميائى: استخراج

المعادن وتعدينها وصهرها، كما يشمل الصباغة والتنميق والتذهيب. وهى تعتبر من أقدم النشاطات العلمية التى عرفها الإنسان فى التحضر.. وهى علوم تحتاج إلى جهد وتجربة، وصبر وتحمل وملاحظة وتتبع .. والعلماء المسلمون قد اهتموا بعلم الكيمياء اهتماماً برزوا به إلى الحياة العلمية، وتقدموا به تقدما أفاد الإنسانية .. وكان المسلمون يعتمدون فى مثل هذه البحوث العلمية على عمليتين مترابطتين.

العملية الأولى: الملاحظة الموضوعية للحوادث والأشياء، وتسجيل وصفها التحديدى «كماً وكيفاً» بما يتصل بها عن طريق الإحساس والإدراك الحسى والأجهزة المساعدة.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

العملية الثانية: التجربة وذلك للوصول إلى معرفة صحيحة أو إلى اكتشاف علاقة صادقة فى كشف السبب المباشر المؤثر .. ويقول العالم الكيميائى جابر بن حيان من علماء القرن الثانى الهجرى، يوصى طلاب العلم فى دراسة الكيمياء «وأول واجب أن تعمل وأن تجرى التجارب لأن من لا يعمل ولا يجرى التجارب لا يصل إلى أدنى مراتب الإتقان»..

ويخطئ كثير من المؤرخين الذين يقولون: أن العصر العباسى هو بداية عصر العلم عند العرب والمسلمين .. حيث تمت ترجمة العلوم عن اليونانية والسريانية والفارسية والهندية .. وحيث أقيمت الدواوين، وازدهرت مجالس العلم والمناظرة. والباحث المنصف والمفكر المتأمل، والدارس العميق يرى أن علوم الكيمياء وغيرها أخذت طريقها إلى المسلمين فى العهد الأموى من القرن الأول الهجرى .. وهذا خالد بن يزيد بن معاوية يكتب لأبيه – وكان قد سافر لطلب علم الكيمياء – يبشره بنجاح سعيه وبلوغ ما أراد .. فكتب قصيدة، أرسلها إلى أبيه فى هذا الشأن يقول فيها:

أيا راكبا نحو الشام عشـــــية   يؤم دمشق قف فحمل كتابيـــاً
وبلغ يزيدا حين يتلو رســـالتى   وقل خالدا قد نال ما كان راجياً
إلا قد ملكت الشمس والبدر عنوة   وحزنهما من بعد طول عنانيـــاً

وخالد بن يزيد يقصد بالشمس الذهب، وبالبدر الفضة. وكانت صناعة الكيمياء آنذاك قائمة على أساس تحويل المعادن الخسيسة إلى الفضة والذهب .. ويمضى خالد فى القصيدة فيقول:

إذا كنت فى حل الرموز مدانيـــا   أخانا فقد نلت الذى كنت راجيـا
وإلا فلا ترتع بها فهى جنـــــة   قد امتلأت للرائدين أفاعيـــــا
هى الصنعة المضروب من دون نيلها   من الرمز أسوار تشيب النواصيـــا
ولكنها أدنى إذا كان عالمـــا   إلى المرء من حبل الوريد تدانيـــا
أعد نظرا فالظن كالعين لا تـرى   على البعد أجرام الجسوم كما هيـا
أبا لظن و التخمين يدرك سرنـــا   وقد بلغت فيه النفوس التراقيـــا

ولا شك أن المتأمل فى هذه الأبيات التى كتبها خالد إلى أبيه يزيد بن معاوية يجد أنها اشتملت على خصوصيات التفكير العلمى. وخصوصيات التفكير العلمى هى:

أولا: انه تفكير موضوعى لا يصدق الخرافة ولا يؤمن بالوهم ولا يعتمد على الأساطير.

ثانيا: انه تفكير يعتمد على الملاحظة الدقيقة، وعلى الحواس كلها فالعين يجب أن ترى، والأذن يجب أن تسمع .. وهكذا ..

ثالثا: إنه تفكير يستخدم التجربة والمعاودة والتكرار ليصل إلى النتائج المرضية .. وكانت صناعة الكيمياء رائجة فى الإسكندرية .. ولهذا استقدم خالد بن يزيد بعثة من علمائها .. حظيت هذه البعثة بالتقدير الذى يليق بالعلماء .. ولهذا نجد أن النديم يقول فى الفهرست: «كان خالد بن يزيد فاضلا فى نفسه له همة ومحبة للعلوم. خطر بباله حب الصنعة. فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان. ممن كان ينزل مصر،

وقد تفصح بالعربية .. وأمرهم بنقل الكتب من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة».

ولما جاء العصر العباسى وتمت ترجمة الكتب على أوسع ما أريد لها، وتفاعلت الثقافات وأطل المسلمون على العلوم من نافذة واسعة .. تفتحت الحضارة الإسلامية وأينعت ثمارها، وتضوع عبيرها .. واشتهر المسلمون فى حقول الكيمياء شهرة واسعة. ويقول الفيلسوف الإنجليزى «باكون» (أن جابر بن حيان يعد معلم العالم فى الكيمياء).. وفى عهد جابر بن حيان «١٢٠هـ ٢٦٠ م» عرف التقطير والتصعيد والترشيح والتكليس، وكلها عمليات كيميائية فيزيائية .. كما عرف حمض الكبريت الذى ينسب اكتشافه إلى العالم المسلم أبو بكر الرازى. كما اكتشف حمض الأزت، والصودا الكاوية والفحمات المعدنية وغيرها ..

ويقول أمين فى كتابه «ظهر الإسلام»: «وكان اشتغال المسلمين بتحويل المعادن إلى ذهب، سبباً فى وقوفهم على كثير من المواد الكيمياوية فاستحضروا ماء الفضة المسمى «حامض النتريك» وزيت الزاج المسمى «حامض الكبريتيك».. واكتشفوا البوتاسا، وروح النشادر وملحه، وغير ذلك من المركبات والعناصر .. واكتشفوا مادة إذا طلى بها الخشب لم يحترق»..

وهكذا ترى أن العلماء قد تعمقوا فى علوم الحياة والحضارة الإنسانية فكان منهم النوابغ، وأوائل من اكتشف حقائق علمية فى مجالات كانت أول المعالم على طريق الباحثين .. وأن علوم المسلمين هى أساس الحضارة فمن العصر الأول والحركة العلمية تتدرج فى أطوار مختلفة .. وصارت البلاد الإسلامية مركزا للثقافات الأوربية يقول العلامة الأوربى «لوكلرك» مؤرخ علوم الطب والباحث فى الدراسات الإسلامية: «حصل حادثان عظيمان فى قطبى العالم الإسلامى..

أحدهما: الحرب الصليبيــة التـى سـاقت إلى الشـرق نحـوا مـن مليـون مسيحى ..

وثانيهما: زحف الأفكار الإسلامية على الغرب بواسـطة الأندلـس .. فقد قصد مكاتب المسلمين فى أسبانيا كثير من طـلاب العلـم مـن جميـع أنحـاء البـلاد النصرانيـة، عطاشـا إلى تلـك المنـاهل، فوجـدوا فـى خزائـن المسلمين فى الأندلـس، مـن التـأليف والـتراجم العربيـة، مـا أحيـا بينـهم الفلسفة القديمة التى كانوا جهلوها ..

ويضيف «لوكلرك» قائلا: «ورد فى بحث جرى مؤخـرا مـن أن بعـض الكتاب المعاصرين أخذوا ينكرون على العرب، العبقرية العلمية، والحقيقة أن هـذه الملكـة العلميـة، وأن هـذا البحـث والتنقيـب قـد أثبتـها العـرب لأنفسهم من البداية فى بغداد حيث قرر علماؤها من ذلك الوقت تقريرا صريحا المبادئ التى ينبغى أن يسير عليها العلم. وهى السير من المعلوم إلى المجهول .. وعدم قبول شئ على أنه حقيقة إلا بعد ثبوتـه بالتجربـة، أذن منذ القرن الحادى عشـر أثبـت العـرب أنـهم كـانوا قـد ملكـوا الطريقـة العلمية الصحيحة» ..

ولعل القارئ الكريـم يـدرك معـى .. أن تقسـيم العصـور العلميـة إلى عصرين رئيسيين كما جاء فى مقدمـة الموضـوع تقسـيم بـاطل لا يعتمـد علـى الصـدق، ولا تنـهض الأدلـة علـى تدعيمـه .. وهـو تقسـيم أمـلاه التعصب الصليبــى ضـد الإسـلام والمسـلمين كذلـك دعـوى أن التفكـير العلمى ليس من خصائص المسلمين، دعوى كاذبـة وعنصريـة حـاقدة .. وليس عجيبا أن نقرأ مثل هذه الافتراءات والمزاعم فى كتابات الصليبيين والصهيونيين والماركسيين .. ولكن من العجيـب والغريـب والمدهـش أن يردد أبناء العالم الإسلامى وخاصة الذين يدرسون فى جامعات أوربـا .. يرددون هذه المزاعم فى كتاباتهم .. ففى مجلة العربى كتب أحد الكاتبين «فى مجلـد سـنة ١٩٧٥» موضوعـا عـن الأدويـة وتطورهـا والموضـوع لم

يخرج عن التقسيم الصليبى للعصور العلمية .. فلـم يذكـر كـاتب المقـال شيئا عن الأدوية والطب فى الإسلام.

وفى مجلة الفيصل يكتب فى العـدد الأول منـها أحـد الكتـاب يقـول: «وإذا كان لنا أن نقول أن الفكر القرآنى أسمى فى مراتب الإنسانية العليا من الفكر الغربى الـذى استغرق همـه فـى البحـث النظـرى فـى المعرفـة الإنسانية تارة، وفيما وراءها تارة أخرى .. فإن الفكر الغربـى اليـوم فـى اتجاهه إلى المنطـق الرمـزى، والعلـم التطبيقـى، قـد فتـح أفـاق جديـدة لم نطرقـها نحـن المسـلمين ولازلنـا نقـف مـن الغربيـين فيـها موقـف المتعلـم المنبهر.. وأما هذه الحصيلة الضخمة من الدراسات اللسانية فـى الغـرب، فقد طرقت أبوابا فى التحليل والوصف اللسانى لازلنا نتطلـع إليـها دون أن ندرك مداها. ولا سبيل للحاق بهم فى هذا الميـدان إلا باسـتظهار مـا عندهم لنثرى ما عندنا مما خلفه السلف من تراث لسانى كان أغنى شـئ فى التراث البشـرى فـى زمانـه» .. فـهذا الكـلام يتضمـن الإنكـار علـى المسلمين أن تكون قد توفرت لهم خصوصيات التفكير العلمى .. وأن ما لدى المسلمين من تراث لسـانى نظـرى وتلـك دعـوى كثـيراً مـا رددهـا بعض علماء الاستشراق .. ومن هنا كان علينـا أن نقـرأ الـتراث العلمـى والنظرى. ونبرزه إلى المثقفين، حتى لا ننقطع عن الأصالة..

* * *

قال تعالى في سورة يس: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].

وخلاصة ما جاء عن المفسرين: أن تعاقب الليل والنهار على ظهر البسيطة من أكبر الأدلة على قدرة الله سبحانه وتعالى وفيه عبرة لمن يعى ويفهم .. وفى الضياء سرور وراحة للنفس، وسعى على الرزق، وفى زواله وحشة وانقباض تشعر بألمه النفوس، كما أن فيه تركا للعمل الذى به قوام الحياة، ومن ثم جعل الآية ظهور الليل و لم يجعلها مجىء النهار والآية تحصل بكل منهما .. والشمس تجرى حول مركز مدارها الثابت الذى تسير حوله بحسب وضعها النجمى، فقد ثبت لها حركة رخوية حول المركز تقدر بمائتى ميل فى الثانية، وهذا الوضع الفلكى العجيب من تقدير العزيز العليم..

وجعل الله لسير القمر منازل، وهى ثمانية وعشرون منزلا، ينزل فى كل واحد منها كل ليلة، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر، فإذا كان فى آخر منازله دق وتقوس .. ولا يصح للشمس ولا يسهل عليها أن تدرك القمر فى سرعة سيره، لأن لكل من الشمس والقمر مدارا خاصا، لا يجتمع مع الآخر .. ولا تسبق آية الليل وهى القمر، آية النهار

وهى الشمس. إذ أن الشمس والقمر يجريان بحساب منتظم لا يتغير ولا يتبدّل .. وكل من الأرض والشمس والقمر، يسبح فى فلكه كما يسبح السمك فى الماء، فالشمس تجرى فى مدارها والأرض تجرى حول الشمس فى سنة، وحول نفسها فى يوم وليلة، والقمر يجرى حول الأرض كل شهر.

وعلماء الفلك قبل الإسلام جعلوا الكواكب مركزة فى الأفلاك، فليس للكواكب أن يسبح، بل لابد لها من حامل يحملها وهو الذى يدور بها هكذا كان الرأى عند الأقدمين من علماء اليونان والهند والصين.

أما علم الفلك فى الإسلام فقد أثبت منذ نزلت هذه الآية من سورة يس، وما جرى مجراها من آيات القرآن الكريم أثبتت أن الكواكب تسير فى مدارات عالم الأثير. والفلك هو مجرى الكواكب، سمى بذلك لاستدارته .. ولسنا نكتب عن الحضارة الإسلامية وعلومها، والرياضيات، والكيمياء، والطبيعية، والفلك، والصناعة وغيرها، من سائر الفنون، لنتغنى ونفاخر، بحضارة كانت ثم انتقلت إلى غيرنا وإنما نكتب عنها، ومن حق القلم أن يكشف عن علومها لتكون علامات مضيئة فى الطريق الإسلامى الذى بدأنا نحسن السير فيه، ونحس به. وأن للمسلمين من الإمكانيات المادية والموارد المالية، والعقليات العلمية، ما يمكن من قيام حضارة إسلامية جديدة، خاصة أن حضارة الغرب والشرق قد أفلست ولم يجد الإنسان فى ظلها أى سعادة، بل لعلنا ندرك أن ظاهرة الخنفسة ونوادى الانحراف والإباحية الجنسية، وانتشار الجرائم وسفك الدماء، والتسابق فى صناعة أسلحة التدمير .. كلها ظواهر تدل على إفلاس الحضارة الغربية والشرقية ومن هنا كان علينا أن نبدأ فى العمل لتحس الإنسانية بوجودنا كأمة جاءت لتكون خير أمة .. ولا مانع من أن أنقل للقارئ المسلم ما كتبه العلامة «درابر» الأمريكى عن جهود المسلمين فى العلوم الحضارية يقول: «وكان من عادة العرب أن يراقبوا

ويمتحنوا، وقد حسبوا الهندسة والعلوم والرياضيـة وسـائط للقيـاس. ومما تجدر ملاحظته أنهم لم يستندوا فيما كتبوه فى الميكانيكـات والسـائلات والبصريات على مجرد النظر، بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من آلات، وذلك ما هيأ لهم سبيل ابتداع الكيمياء، وقـادهم هـذا إلى اختراع أدوات التصفية والتبخير ورفع الأثقال، ودعاهم إلى استعمال الاصطرلاب فى علم الهيئة، واستخدام الموازنة فى الكيمياء، مما خصوا به دون سواهم، و هيـأ لهـم صنـع جـداول للجاذبيـة النوعيـة وعلـم الهيئـة، كالتى اصطنعت فى بغداد والأندلس وسمرقنـد، ممـا فتـح لهـم فتـح بـاب تحسـين عظيـم فـى قضايـا الهندسـة وحسـاب المثلثـات، واخـتراع الجـبر، واستعمال الأرقام فى الحسـاب، وكـان ذلـك كلـه مـن نتـائج اسـتعمال طريقة الاستدلال والامتحان. و لم يقروا فى علم الهيئـة لوائـح فقـط، بـل رسموا خرائط النجوم المنظورة، مطلقين علـى القـدر الأعظـم منـها أسمـاء عربية لا تزال تتردد فى ذاكرتنا الفلكية. وقد عرفوا حجم الأرض بقياس درجة سطحها وعينوا الكسوف والخسـوف، ووضعـوا للشـمس والقمـر جداول صحيحة، وقرروا طـول السـنة، وأدركـوا الاعتدالـين، ولاحظـوا أمورا بعثت نورا باهرا على نظام العالم ..

واختص علماء الفلك منهم باختراع الآلات الفلكيـة، لقيـاس الوقـت بالساعات المتنوعة وكانوا السابقين لاستعمال السـاعة الرقاصـة .. وهـم الذين أنشأوا فى العلوم العمليـة علـم الكيميـاء وكشـفوا بعـض أجزائـها المهمة، كحامض الكبريتيك، وحـامض النـتريك والكحـول وهـم الذيـن استخدموا ذلك العلم فى المعالجات الطبية، فكانوا أول من نشر تركيـب الأدوية. وهم الذين قرروا فى الميكانيكيـات نواميـس سـقوط الأجسـام، وكان رأى جلى مـن جهـة طبيعيـة الجاذبيـة، ورأى سـديد فـى القـوات الميكانيكيـة واصطنعـوا فـى نقـل السـوائل وموازنتـها، الجـداول الأولى للجاذبية النوعية، وكتبوا مقالات فـى عـوم الأجسـام وغرقـها فـى المـاء، وأصلحوا فى علم البصريات، خطـأ اليونـان بكـون الشـعاع يصـدر مـن

العين ويمس المرئى فيظهره، فقالوا: أن الشعاع يمر فى المرئى إلى العين وفهموا مسار انعكاس النور وانكساره، وكشفوا عن طريق الشعاع المنحنى فى الهواء، وبرهنوا على أننا نرى الشمس والقمر قبل الشروق - وبعد الغروب. والذى يدهش كثيراً أن نتصور أشياء نفاخر بأنها من مواليد عصرنا، ثم لا نلبث أن نراهم سبقونا إليها»..

هكذا يتحدث العالم الأمريكى درابرا عن مساهمة المسلمين فى علوم الحضارة. ولا شك أن علماء الإسلام انطلقوا من آيات القرآن الكريم التى جاءت عن الشمس والقمر والليل والنهار والأرض والنجوم انطلقوا من هذه الآيات وعلى ضوئها يبحثون ويدرسون، ويضعون الآلات الفلكية حتى وصلوا بعلم الفلك إلى أرقى ما وصل إليه، وكان الإقبال على دراسة الفلك شديداً، نظراً لارتباط الناس به فى كل أوقاتهم، وليلهم ونهارهم و لم ينشئ المسلمون فى الفلك أزياجا فقط «جداول» بل رسموا صفائح للنجوم المنظورة، وسموا النجوم الكبرى التى فى الكرة السماوية، بالأسماء التى تعرف بها اليوم، وقاسوا مساحة الأرض وطول الدرجة، وفصلوا مسألة انحراف دائرة البروج عن خط الاستواء، ونشروا صفائح مرسومة عليها حركة القمر والشمس، وقرروا مدة السنة الشمسية، وحققوا حركة مبادرة الاعتدال. جاء فى المجلد الأول من كتاب «حاضر العالم الإسلامى» لشكيب أرسلان: «وقد أطنب «لابلاس» فى ذكر رسالة علم النجوم، تأليف «البتانى» وذكر رسالة أخرى جليلة لابن يونس الذى كان فلكى الحاكم فى مصر سنة ألف ميلادية، تحتوى على سلسلة اختبارات من زمن المنصور فى الكسوف والاعتدال والانقلاب وقران لسيارات واحتجاب الكواكب وهى مراقبات فلكية جليلة أضاءت الألباب، فى مسائل تغييرات الكرة السماوية وعكف الفلكيون العرب على إتقان الآلات الفلكية، وقياس الزمان بالساعات المختلفة منها الساعة المائية ومنها الشمسية، وهم أول من استعملوا لذلك الساعة الكبيرة ذات الرقاص».

ومن الفلكيين المشـهورين سـعد بـن علـى، ويحيـى بـن أبـى منصـور، وخالد بن عبد الملك فقد أعدوا الجداول المحققة. ومـن أعمـالهم المـأثورة: أنهم رصدوا الاعتدال الربيعـى والخريفـى، والخسـوف، وشـبح المذنبـات وغير ذلك من الظواهر الطبيعية. والعالم المسلم «ما شاء الله» يؤلـف عـدة رسـائل قيمـة فـى «الاصطرلاب» والكـرة ذات الحلـق وطبيعـة الأجـرام السماوية وحركتها، وهى مؤلفات لا تزال موضـع إعجـاب العلمـاء فـى أوربا .. وكتب أحمد النهاوندى جدولاً فلكياً، اسمـه «المسـتعمل» وكـان هذا الجدول قائماً على حقائق علمية. ولهذا اعتبره علمـاء الغـرب، تقـدم علمى فاق به من تقدمه من علماء اليونان والهندوس ..

والعلماء الأجلاء حسن ومحمد وأحمد أبناء موسى بن شاكر قد قـاموا باكتشافات دقيقة لا تكاد تفترق فى دقتها عن أحدث اكتشافات أوربا. ولاسيما فيما يتعلق بإيجاد معدل دائرة الفلك الـذى تجـرى فيـه الشـمس وغيرها من الأجـرام، وحققـوا ميـل الـبروج بدقـة ولاحظـوا كمـا يقـول العلماء لأول مرة التغـير فـى ارتفـاع القمـر. كمـا رصـدوا بدقـة عجيبـة الاعتدالين وحركة الأوج الشمسـى. وحسـبوا حجـم الأرض مـن قيـاس درجة على شاطئ البحر الأحمر فى الوقت الذى كانت فيه أوربـا تؤكـد أن الأرض مسطحة واخترع أبو الحسن آلة الرصد «تلسـكوب» ووصفـه بأنـه أنبـوب مثبـت فـى طرفيـه عدسـات وقـد هذبـت هـذه الأنـابيب، واستعملت فيما بعد فى المراصـد التـى انتشـرت فـى المملكـة الإسـلامية الواسعة ..

والعلامـة عبـد الله البتـانى مـن علمـاء القـرن الثـالث الهجـرى تـترجم مؤلفاته الفلكية إلى اللاتينية، ويعتمـد عليـها العلمـاء فـى أوربـا، اعتمـادا كليا ونتيجة لتقدم العلماء المسلمين فى الفلك انتشـرت المراصـد الفلكيـة ففى عهد الخليفة المأمون أنشئت مراصد فى دمشـق وبغـداد، وفـى عـهد الخليفة المقتدى باللّه، أنشأ نظام الملك أبو علـى الطوسـى مرصـدا باسـم السلطان «ملكشاة السلجوقى» .. وجاء فى كتـاب السـلوك للمقريـزى:

«أن نصير الدين محمد بن عبد الله الطوسى أقام مرصداً فى مراغة تحت قبة عظيمة، وكان هذا المرصد من أشهر المراصد وأكبرها، وكان به أدق الآلات واشتهرت أرصاد الطوسى بالدقة فاعتمد عليها علماء أوربا فى القرون الوسطى»..

وفى عهد الفاطميين أمر الحاكم بأمر الله بإنشاء مرصد على جبل المقطم ووجدت مراصد أخرى كمرصد شرف الدولة ومرصد الدينورى بأصفهان، ومرصد البيرونى، ومرصد البتانى وابن الشاطر، وكان المسلمون هم أول من شيدوا أول مرصد فى أوربا، وأشرف جابر بن أفلح العالم الرياضى الكبير على إنشاء برج إشبيلية لرصد النجوم، وكان مصير هذا البرج لا يخلوا من الغرابة إذ حوله الأسبان بعد إخراج المسلمين من الأندلس نتيجة لضعفهم واختلافهم وتفرق كلمتهم، حوله الأسبان إلى برج للناقوس لأنهم لا يدرون ما يصنعون به سوى ذلك ..

ويذكر العلماء الدارسون والمؤرخون: أن المراصد الفلكية الإسلامية، كان بها آلات مختلفة دقيقة، منها ما هو خاص يمسح الأرض وتعيين الارتفاعات وتحديد خطوط الطول والعرض ومنها ما هو خاص ببيان النجوم والكواكب فى مسالكها بإحكام تام، كما كانت بالمراصد خرائط تبين صورة كل إقليم فى دقة تامة، وعليها التلال والصحراوات والبحار ..

وإذا كان المسلمون هم الذين حسنوا «الاسطرلاب» الفلكى وهو عبارة عن مجموعة آلات فلكية للرصد. فإن الشعر العربى يسجل هذا التقدم العلمى فى أبيات رائعة جادت بها شاعرية محمود بن السندى المكنى أبو الفتح، والملقب كشاجم. وكان عالماً فلكياً. يقول فى الاسطرلاب:

ويستدير كجرم البدر مسطوح
عن كل رافعة الأشكال مصفوح

صلــب يــدار علــى قطــب يثبتــه
تمثال ظرف بشكر الحذق مكبـوح
مـلء البنـان وقـد أوفـت صفائحـه
علـى الأقـاليم مـن أقطارهـا الفيـح
تلفـى بـه السـبعة الأفـلاك محدقـة
بالمـاء والنـار والأرضـين والريـح
تنبيـك عـن طـائح الأبـراج عينتـه
بالشـمس طـوراً وطـوراً بالمصـابيح
وإن مضـت سـاعة أو بعـض ثانيـة
عرفـت ذاك بعلـم فيـه مشـروح
وأن تعـرض فـى وقـت بقـدره
لـك التشـكك جـلاء بتصحيـح
ممـيز فـى قياسـات الضلـوع بـه
بـين المشـائم منـها والمنـاجيح
لـه على الظـهر عينـا حكمـة بـهما
يحـوى الضيـاء وتنجيـه مـن اللـوح
وفـى الدواويـن مـن أشـكاله حكـم
تنقـح العقـل فيـها أى تنقيـح
لا يسـتقل لمـا فيـها بمعرفـة
إلا الحصيف اللطيف الحس والروح

وهكذا فتقت الحضارة الإسلامية الأذهان، وصقلت العقول، وجعلت من المسلمين والعرب علماء مبتكرين ومخترعين ومجددين، ولقد أحاطوا بكل أسباب المعرفة، وضربوا الرقم القياسى فى التقدم العلمى. وما على الأمة الإسلامية إلا أن تنهج النهج السليم، وتربى الشباب على حب العلم والبحث وتزيد من المكتبات التى توسع المدارك .. وعلى علماء الأمة الإسلامية أن ينبهوا الناس إلى العلم الصحيح، والتقدم الحضارى

المنشود وخاصة ونحن نعيش صحوة علمية حية. ويقظة ثقافية واعية، ولعل هذا يدفع بنا إلى مزيد من المجامع العلمية التى ترعى المتخصصات، وتجمع الجهود، وتوحد الأهداف.

* * *

المنهج الرياضى

المعرفة أساس رقى المجتمعات، وتقدم الإنسانية. والعلم يصل إلى المعرفة عن طريق الثقافة، والبحث العلمى، والاستقراء ..

والعقل البشرى استطاع بما اكتسب من خبرة، ودراية، ومران، أن يصنف المعارف الإنسانية وأن يحكم ما بينها من وشائح، وأن يستفيد بما بينها من صلات، وروابط..

والنتائج العلمية متصل بعضها ببعض، ويعتمد بعضها على بعض، والحضارات الإنسانية ليست ملكا لأمة بعينها .. ولا هى وقف على جماعة من الناس، لأنها صرح هائل، قد أسهمت فيه كل أمة بنصيب ..

والحضارات الإنسانية قد تتشابه فى مظاهرها، وفى عناصرها، وفى أسلوبها ولاسيما إذا تعايشت فى جهات متقاربة ..

والحضارات الإنسانية سلسلة محكمة، متينة الحلقات، يؤثر سابقها فى لاحقها ويتأثر حاضرها بماضيها ..

وإيماناً من المسلمين بفوائد العلم، ونتائج المعرفة .. وإيماناً من المسلمين بأن المعرفة حلقات متصل بعضها ببعض، ومؤثر بعضها فى بعض .. وانطلاقا من مفهوم «اقرأ» والتى كانت أول كلمة يتلقاها الرسول الأمين، من وحى السماء .. إيماناً وانطلاقا عكف المسلمون على ثمرات عقول القدماء من علماء الإغريق والرومان والهند والفرس وغيرهم. يدرسونها كأحسن ما يكون الدرس ويأخذون عنها .. وعنى المسلمون

بالرياضيات والطبيعيات والكيمياء، وغير ذلك من العلوم والفنون. وكان الاهتمام بعلم الرياضيات «الجبر والهندسة والحساب» قائما عن ضرورة اقتضتها الحياة الإسلامية فى تقدمهاوازدهارها ..

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥] [١].

ولا شك أن تفاعلاً حضاريًا فى مختلف العلوم والفنون، قد أخذ دوره فى محيط الحضارة الإسلامية، من واقع تأثرات التمازج والمخالطة .. فعرف المسلمون من الرياضيات الهندية كتاب «السدهانتا» السند هند.. [٢].

وفى أيام أبو جعفر المنصور، قدم كثير من علماء الهند، وكان معهم كتاب «السدهانتا» السند هند، باللغة السسكريتية، وقد كلف أبو جعفر العلامة: أبا إسحاق بن حبيب الغزارى بتعريبه ففعل .. وقام الخوارزمى بتصحيحه ومراجعته[٣].

ويذهب كثير من المؤرخين والباحثين إلى أن كتاب «السد هاتنا» السند هند. لم يفد العرب منه غير الأرقام.. [٤].

---

(١) وهناك آيات أخرى جاءت فى الميراث وبيان الأنصبة ، وغيرها . تشير إلى الحساب ومن ذلك الآية رقم ١١، ١٢، ١٧٦ من سورة النساء . والآية رقم ١٤٢ من سورة الأعراف.. والآية رقم ٣ ورقم ٢٠ من سورة المزمل .. وهذا كله كان دافعا لتعلم الحساب والنبوغ فيه..

(٢) انظر: معالم الحضارة الإسلامية.. للدكتور مصطفى الشكعة ص ١٣٠ - الطبعة الأولى. دار العلم للملايين. بيروت..

(٣) خزائن الكتب العربية فى الخافقين .. لفيليب طرزى .. الجزء الأول. ص ٥٠ طبع بيروت «العبارة أخذت بتصرف واختصار» ..

(٤) نواح مجيدة من الثقافة العربية.. مقال إسماعيل مظهر ص ٥٠ طبع دار المقتطف بمصر..

وأن صور الحروف وأرقام الحساب، تختلف باختلاف الأماكن، وأن العرب أخذوا ما عند الهنود، من أشكال الأرقام، فهذبوها، وكونوا منها سلسلتين عرفت إحداهما بالأرقام الهندية وهى التى استعملها أكثر الأقطار العربية والإسلامية .. وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية، وقد انتشر استعمالها فى بلاد المغرب والأندلس، وعن طريقها دخلت إلى أوربا، وعرفت عندهم باسم الأرقام العربية(١).

والغزارى الذى أتم تعريب كتاب «السد هانتا» قام بتأليف كتاب عن جداول الهيئة، وكتب كتابين فى العمل بالاصطراب ذات الحلق المسطح، وهو أول من عمل اصطرلابا فى الإسلام .. (٢).

والخوارزمى.. (٣) أول من كتب فى الجبر - وأشار إلى ذلك العلامة ابن خلدون فى مقدمته - وقد فصل علم الجبر عن علم الحساب .. واعتمد العلماء فى الشرق والغرب على كتاب الجبر، كل الاعتماد، واتخذوه مرجعا لهم فى بحوثهم الرياضية .. وظل هذا الكتاب مع كتاب الحساب الأساس لكل ما ألف فى أوربا أو درس فى مدارسها العالية أو جامعاتها طيلة قرون..(٤).

ويقال أن كلمة «اللوغاريتم» فى اللغات الأوربية محرفة عن الخوارزمى، عالم الرياضيات المسلم .. ولا شك أن الخوارزمى كان عالماً عبقرياً، أمد الفكر الإنسانى بأوضح الأساليب الرياضية وترك مؤلفات

---

(١) معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان ص ٣٦٣ طبع الانوار بالرياض.. الطبعة الثالثة ..

(٢) انظر : الفهرست . لابن النديم . ص ٢٧٣ طبع القاهرة .

(٣) الخورازمى هو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمى الذى نبغ فى عصر المأمون العباسى فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى . ونشأ فى اقليم خوارزم الإسلامى. وانتقل إلى بغداد عاصمة الخلافة..

(٤) انظر: معالم الثقافة الإسلامية . الدكتور عبد الكريم عثمان ص ٣٣٢ .

تنبئ عن النبوغ الفريد .. منها كتاب «الجبر والمقابلة» وهو أكثر الكتب تأثيرا فى الفكر الرياضى ..

وفى ظل الثقافة الإسلامية وتدفقها المثمر .. اهتم العالم ثابت ابن قرة.. (١) بترجمة كتب الرياضيات .. ويقال: أن كتب ثابت قد مهدت لفرع التكامل والتفاضل فى الرياضيات وله إضافات كالهندسة التحليلية.. وضع كتابا فى علاقة الهندسة بالجبر، والجبر بالهندسة.. ووصل بعض المعادلات التكعيبية بطرق هندسية، استعان بها علماء الغرب فى القرن السادس عشر، واستخرج حركة الشمس، وحسب طول السنة النجمية، وحسب ميل دائرة البروج ..(٢).

وهذا ابن الهيثم ... (٣) يعنى بتحصيل العلوم من هندسة ومخروطات وجبر وحساب مثلثات، وارتماطيقا، وما يتصل بها من نظريات هندسية وميكانيكا، ومراكز الأثقال، ورفع الأثقال، وكان عالماً بمعرفة نظريات الرياضة .. وكان يبحث دائما على تطبيق علمه الرياضى والهندسى فى مجال العمل. ومن هذا ندرك مساهمة الحضارة الإسلامية فى تقدم الإنسانية..

يروى أن الحاكم بأمر الله الفاطمى .. بلغه نبأ ابن الهيثم وعلو مقامه فى العلم التعليمى، وما يقوله ابن الهيثم، من انه لو كان بمصر لعمل فى نيلها عملا، يحصل به النفع فى كل حاله من حالاته. لأنه كان قد بلغه انه ينحدر من موضع عال، وهو فى طرف الإقليم المصرى من ناحية الجنوب .. فاستدعاه الحاكم وأرسل إليه أموالا وهدايا. وخرج الحاكم بنفسه لاستقباله خارج مدينة القاهرة، وأكرم وفادته، وأمر بإكرام مثواه. فلما استراح طالبه بما قال فى أمر النيل، وأرسله إلى أعلى النيل مع جماعة

(١) ثابت بن قرة ..ولد فى حران سنة ٢٢١ هـ . وتوفى فى بغداد سنة ٢٨٨هـ . ودرس اليونانية والسريانية والعربية أعجب به الخوارزمى فأخذه إلى بغداد ..

(٢) معالم الحضارة الإسلامية . للدكتور مصطفى الشكعة . ص ١٤٣ . بيروت ..

(٣) هو : الحسن أبو على بن الحسن بن الهيثم . ولد حوالى سنة ٣٥٤هـ ..

من الصناع. فلما وصل إلى الشلال، لم يجده كما بلغه من قبل موضعا عاليا ينحدر منه الماء، ولم يجد الأمر متفقا وفكرته التى خطرت له .. فعاد إلى القاهرة، وهو فى أشد حالات الخجل واعتذر إلى الحاكم.. [١].

ولما كان ابن الهيثم بارعا فى الرياضيات، فقد وصل إلى نتائج باهرة فى علم الضوء، وامتداد الضوء على السموات المستقيمة .. وفى الأضواء العرضية والمنعكسة..

والعالم الكبير البوزجانى[٢] له فضل فى تقديم العلوم الرياضية ولهذا يقول عنه أحد علماء أوربا: «أن له فى الهندسة استخراجات غريبة لم يسبق إليها وله كذلك مبتكرات فى الأوتار»..

وله بحوث ودراسات قيمة فى المثلثات. وأدخل تجديدات هامة على القطاع، وعلى يديه تقدمت نظريات المثلثات ..

واشتهر فى أوائل القرن الرابع الهجرى محمد بن حسن أبو جعفر، وقال عنه: انه أول من حول المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط، وله بحوث كثيرة فى المثلثات..[٣]

وكان لعبد الله البتانى، باع طويل فى الهندسة، وهيئة الأفلاك، وحساب النجوم..[٤]

وهذا أمية بن أبى الصلت، يصل عن طريق العلوم الرياضية إلى فكرة رفع المراكب الغارقة من قعر البحر .. وقد حكى أن مركبا مملوءا بالنحاس غرق قريبا من الإسكندرية، فعزم أبو الصلت على رفعه.

(١) ظهر الإسلام لأحمد أمين. الجزء الثانى ص ١٩٤ طبع دار الكتاب العربى بيروت.

(٢) البوجانى هو محمد بن يحيى بن إسماعيل. ولد فى بوزجان سنة ٣٢٨هـ وانتقل إلى بغداد فى سن العشرين . وتوفى سنة ٣٧٦هـ .

(٣) انظر : ظهر الإسلام لأحمد أمين . الجزء الثانى ص ١٩٥ ..

(٤) عبد الله البتانى . عالم رياضى كبير ، ولد فى بتان من ناحية حران سنة ٢٤٠هـ وتوفى سنة ٣١٧هـ .

فاجتمع بالأفضل أمير الجيوش ملك الإسكندرية وباحثه بما جال فى خاطره، وطلب منه أن يهيئ له ما أراد .. فأحضر الأفضل لأبى الصلت، الآلات اللازمة، ولما تهيأت وضعها فى مركب عظيم هى موازاة المركب الذى غرق، وأرسى إليه حبالا مبرومة. وأمر قوما لهم خبرة فى البحر، أن يغوصوا، ويوثقوا ربط الحبال بالمركب الغارق .. وكان قد صنع آلات بأشكال هندسية، لرفع الأثقال، فى المركب الذى هم فيه وأمر الجماعة بما يفعلونه فى تلك الآلات. و لم يزل شأنهم ذلك، والحبال ترتفع إليهم أولاً فأول، وتنطوى على دواليب بين أيديهم، حتى بان لهم المركب الذى كان قد غرق[1].

وابن الهيثم يشتهر فى الرياضيات النظرية، ويشيع اسمه فى مصر والشام، وقد برع فى ضرب أعداد أخرى، من غير إجراء عمليات الضرب، كقوله: «أن كل عدد يضرب فى خمسة عشر أو مائة وخمسين أو ألف وخمسمائة، يضاف عليه مثل نصفه، ويضرب حاصل الجمع فى عشرة فى الأول، ومائة فى الثانية، وألف فى الثالث».

وقد بعثهم على المهارة فى الرياضة، وحل مسائل معقدة فى الميراث..[2].

ومحمد وأحمد وحسن أبناء موسى بن شاكر، الذين عاشوا فى عهد المأمون يبنون مرصداً بناء على تجاربهم الرياضية، ويجرون فيه المراقبات بأنفسهم، وعنهم يقول العالم الأوربى: أوليرى: «نحن الغربيون مدينون لهم بمؤلف فى الهندسة البسيطة وهندسة الكريات ومجموعة من الأعمال والأشكال الهندسية»..

---

(١) عيون الأنباء .لابن أبى أصيبعة. طبع مكتبة الحياة بيروت.

(٢) ظهر الإسلام . لأحمد أمين ص ١٩٨ دار الكتاب العربى فى بيروت ..

وهناك للأخوة الثلاثة متناً فى الهندسة، ترجم إلى اللاتينية على يد العلامة جرهارد الكريمونى. وقد بقى مدة طويلة، يعتبر مقدمة للهندسة..[1].

وهكذا اكتشف العلماء المسلمون الكثير من المبادئ الأساسية للحساب والجبر والهندسة وأن الجبر على أغلب الأقوال من اختراع المسلمين، وان الأعداد وطريقة العد التى تستعمل فيه حتى الآن من اختراع إسلامى..

ولما كان المسلمون يستعملون المثلثات (فرع من الرياضيات) فى علم الفلك فقد وجهوا إليه عناية فائقة .. ويعزى إلى البتانى استبدال أوتار الأقواس (الخطوط المقابلة فى الهندسة) بجيب القوس المشار إليه، واستعمال جيب الزاوية، وجيب تمام الزاوية، فى حساب التفاضل والتكامل، وقد سماه الظل المطول. وهو ما يسمى فى علم المثلثات الحديث بالظل. وكان هذا أمراً بارز الأهمية، حتى أن مؤلف كتاب المجمل التاريخى، فى مناهج علم الهندسة «م. تشارلس» يسجل هذه الحقيقة بقوله: «أن علماء الرياضيات لم يتوصلوا إلى اكتشاف الظل إلا بعد البتانى بخمسمائة عام».. أما اختراع الصفر فقد كان ثورة فى علم الرياضيات، وإن لم يدرج استعماله فى الغرب حتى بداية القرن الثامن عشر»..[2].

ولا شك أن الفكر الإسلامى قد استفاد من الترجمة سواء ما كان من الهندية أو الفارسية أو اليونانية ..

والترجمة كانت رافداً فكريا، يصب فى معين الحقل الإسلامى الذى كان متطلعا التى المعرفة، تواقاً إليها .. ومن ثم لم يلبث الحقل العلمى

---

(١) معالم الحضارة الإسلامية . للدكتور مصطفى الشكعة. ص ١٤٤.

(٢) معالم الثقافة الإسلامية . للدكتور عبد الكريم عثمان ص ٢٩٨ ط ٣.

الإسلامى إلا قليلا حتى أضاف إلى معلومات هذه الأمم، وارتقى بعلومها وهذبها وحفظها فى أتم صورة وأدقها[1].

ويقول الأستاذ كويلر يونج: «ولم يكن الباحثون ورجال العلم الإسلاميون مجرد نقلة. ولكنهم عدلوا التراث الكلاسيكى، وأعادوا خلقه، وأخرجوا منه ثقافة جديدة عليها طابع الإسلام، وعلى هذه الصورة نقلوها إلى عقول أوربا الفاحصة التى جاءت تطلب العلم فى أسبانيا وصقلية»..[2].

ويذكر العلامة دريبر المدرس بجامعة هارفارد بأمريكا: «أن جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوربيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم».

وقد نستطيع بعد هذا أن نصل إلى الحقائق التالية:

أولاً: نظراً لاهتمام المسلمين بالعلم والمعرفة، فقد استطاعوا فى سرعة لم يعهد لها مثيل، فى تاريخ النهوض أن ينتقلوا من أمة الأمية إلى أمة العلم والقيادة الفكرية، وأن يصبحوا أساتذة العلم والعالم، ورواد العلوم والفنون، يدرسونها للأجيال المعاصرة، ويدونونها للأجيال المقبلة كأحسن ما يكون التأليف والتدوين، وينشرونها فى شعوب كانت تائهة فى عماء الجهل وظلمته ..

ثانياً: كان العالم من علماء الأمة الإسلامية. موسوعة علمية بكل ما فى كلمة موسوعة من معنى ومفهوم. فتجد الواحد منهم عالماً فى الفقه واللغة والتفسير والطب والفلك والجبر والهندسة والحساب والكيمياء، وسائر الفنون. وهذا ينبئ عن عقلية فذة، وثقافة واسعة، ومقدرة فائقة، واهتمام وحركية، وصبر، واحتمال ..

---

(١) معالم الحضارة الإسلامية للدكتور مصطفى الشكعة ص ١٤٥ .

(٢) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة . ص ٢٣٦ طبع بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين..

ثالثاً: بهذه الروح العلمية فتح المسلمون طريق الانتفاع بأصلين عظيمين من أصول الإصلاح الإنسانى، وهما: حرية الفكر .. واستقلال الإرادة. لأن العقول لا تنهض للبحث ولا تتحرك للعمل، إلا بعد أن تعرف أن لها حقا فى طلب الحقائق.

رابعاً: أن الحضارة الإسلامية وصلت بين قديم الحضارات وجديدها بما حفظت من تراث الأقدمين، وما أضافت إليه من عبقريتها الإسلامية المبدعة ..

خامساً: كان المنهج الرياضى فى الفكر الإسلامى منهجا عمليا، يطبق على مجالات شتى فى هندسة البناء والتعمير والصناعة، وإقامة السدود، ورفع المراكب الغارقة، وقياس المسافات وغيرها. ومن هذا تدرك أن علماء الأمة أمدوا الحضارة الإنسانية بمساهمات ذات أثر خالد، ولن ينسى التاريخ دور الأمة الإسلامية فى البناء الحضارى .. ولن تنسى الإنسانية عصور الإسلام الزاهرة فى مجالات الحياة كلها .. .

ولما كان الشعر العربى هو الديوان الذى يسجل الإنتاج الإسلامى نجد أن الشاعر العربى كشاجم[1] يغوص بروح الشعر إلى قلب الدائرة التى لا ترسم إلا بالبركار. وذلك فى وصفة الفريد لذلك البركار:

جدلى ببركارك الذى صنعت ... فيه يداً قينه الاعاجيبا
ملتئم الشعبتين معتدل ... ما من جانب ولا عيبا
شخصان فى شكل واحد قدرا ... وركبا بالعقول تركيبا
أشبه شيئين فى أشكالهما ... بصاحب لا يزال مصحوبا

(١) كشاجم هذا هو : محمود بن السندى وكنيته أبو الفتح وكان كاتبا .. شاعرا .. أديبا.. جوادًا .. منجمًا. فأخذ الحرف من كل صفة من تلك الصفات بمعنى انه اخذ الكاف من كاتب والشين من شاعر ، والألف من أديب ، والجيم من جواد والميم من منجم . وضمها بعضها إلى بعض فصارت (كشاجم) فكان لقبه الذى ظل يعرف به طوال القرون (انظر معالم الحضارة الإسلامية) للدكتور مصطفى الشكعة. ص ٢٨٠ دار العلم للملايين بيروت.

أوثـق مسـماره وغيـب عـن   نواظـر النـاقدين تغييبـا
فعـين مـن يجتليـه يحسـبه   فـي قـالب الاعتـدال مصبوبـا
قـد ضـم قطريـة محكمـا لهمـا   ضـم محـب إليـه محبوبـا
يـزداد حرصـا عليـه مبصـره   مـا زاده بالبنـان تقليبـا
ذو مقلـة بصرتـه منسـية   لم تألـه رقـة وتـهذيبا
ينظـر فيـها إلى الصـواب فمـا   بـها يـزال الصـواب مطلوبـا
لـولاه مـا صـح خـط دائـرة   ولا وجدنـا الحسـاب محسـوبا
الحـق فيـه فـإن عدلـت إلى   سـواه كـان الحسـاب تقريبـا
لـو عـين إقليـدس بـه بصـرت   خـر لـه بالسـجود مكبوبـا
فابعثـه وأجنبـه لى بمسطـرة   تلـف الهـوى بالثنـاء مجنوبـا[1]

* * *

(١) زهر الآداب . ص ٣٨٩ .

علم الطب والجراحة

يبين القرآن الكريم صوراً من أصول علم الطب، ويظهر للعلماء العاملين أهمية هذا العلم بالنسبة للإنسان، فى كل عصر وزمان ومكان، ويوضح للمفكرين طرق الوقاية، ومضار الإسراف فى الأكل والشرب، وخطره على الصحة الإنسانية.

قال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال تعالى فى سورة النحل: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

وقال تعالى فى سورة ص: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ (٤١) ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴾ [ص: ٤١، ٤٢].

فأنت ترى أيها القارئ أن الله سبحانه وتعالى، نهى عن الإسراف فى الأكل والشرب، لأن ما فوق الطاقة الجسمية، ضرر كبير، وما فوق الطاقة الاقتصادية خطر عظيم، وما فوق الحدود الشرعية. حرام وهلاك..

وقد أرشد الله فى سورة النحل إلى فوائد العسل الطبية، وبين مدى قيمته فى شفاء كثير من الأمراض. أما آيات سورة ص، فقد بينت أن أيوب عليه السلام ابتلى بالأمراض والأوجاع، وقد دعا الله أن يشفيه ويعافيه، فاستجاب الله له، ولكن استجابة الله لم تكن بشفائه مباشرة وإنما بعد ممارسة الأسباب التى يكون فيها الشفاء. ولهذا دله الله على الماء الذى يغتسل منه فيذهب كل ما علق بجلده من قروح، ثم دله على ماء آخر يشرب منه فيتطهر .. وفى أحاديث الرسول ﷺ، ورد الحث على التداوى والتطبيب، روى أبو داود عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أن الله تعالى أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء، فتداووا، ولا تتداووا بحرام» ..

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء»..

وروى مسلم عن جابر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أن لكل داء دواء، فإذا أصاب دواء الداء، برأ بإذن الله تعالى»..

وروى أحمد عن أسامة بن شريك، قال: كنت عند النبى ﷺ، وجاءت الأعراب. فقالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال: «نعم يا عباد الله تداووا، إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله».

يقول ابن القيم فى كتابه «زاد المعاد» بعد أن ذكر جملة من الأحاديث النبوية التى جاءت فى الطب: «تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات وإبطال قول من أنكرها»..

ويقول فى موضع آخر من زاد المعاد: «الطبيب هو الذى يفرق ما يضر بالإنسان جمعه، أو يجمع فيه ما يضره تفرقه. أو ينقص منه ما يضره زيادته أو يزيد فيه ما يضره نقصه. فيجلب الصحة المفقودة، أو يحفظها

بالشكل والشبه، ويدفع العلة الموجودة بالضد والنقيض، ويخرجها أو يدفعها بما يمنع من حصولها بالحمية» ..

وكان المسلمون فى الطب يعتمدون على معقولية الحقائق وامتحانها، إما عن طريق المنطق، وإما عن طريق تجربة الحقائق وامتحانها عمليا، فإذا ذكرت حقيقة فقلما يعنون بقائلها، ولكنهم يعنون بوضعها تحت قواعد المنطق. وهل من قوانينه ما يؤيدها أو ما ينقضها. وكذلك قد يمتحنون نتيجتها، فيحكموا عليها بالخطأ أو الصواب ..

وكان نشاط المسلمين فى ذلك يسترعى الأنظار ويستخرج العجب، وظل المسلمون طوال حياتهم العلمية فى العهود الزاهرة، يعيشون على هذه الثروة، «وبعد المنهج العلمى التجريبى الذى تدين له الحضارة الحديثة بما وصلت إليه من كشف واختراع، بعد أن تبنته واعتمدته طريقا للوصول إلى حقائق العلوم. يعد هذا المنهج أحدث منجزات هذه الثقافة. فقد كانت الثقافة القديمة وخاصة اليونانية التى احتك بها المسلمون أكثر من غيرها من الثقافات، تجهل الطريقة التجريبية وتحتقرها ولا تعنى إلا بالدراسات النظرية المجردة» ..

ويقول عباس العقاد: «لما تناول العرب الطب كانت هذه الصناعة فى المرحلة بين تناسى النظريات القديمة ونشأة النظريات الحديثة، ولم تكن العلوم فى جملتها قد وصلت إلى الطور الذى يسمح بابتكار هذه النظرية أو ابتكار الجديد منها، وتصرفوا فى العلاج فلم يتقيدوا برأى جالينوس فى علاج الحرارة بالبرودة والبرودة بالحرارة، بل كان منهم من يعالج البرد بالبرد فى بعض الحالات، أو يجمع بين الحمية والتبريد والترطيب كما كان يفعل صاعد بن بشر رئيس المستشفى العضدى ببغداد. وقد عرفوا العلاج بالعوض كما يؤخذ من كلامهم عن خصائص أعضاء الحيوان. فإن الدميرى صاحب كتاب الحيوان، يذكر من منافع رئة الثعلب مثلا إنها تداوى أمراض الصدر، لأن هذا الحيوان لا يلهث إذا

عدا. ويذكر غير ذلك من خصائص أعضاء الحيوان، وسبقوا الإفرنج إلى وصف الجذام وشرح مرضى الجدرى والحصبة، وعلاج أمراض العين» ..

وكان الأطباء المسلمون يعنون بفحص البول وجس النبض، والاستدلال منهما على نوع المرض، واستفاد الأطباء المسلمون من اليونان والفرس والهنود والكلدان واخترع بعضهم ما خالف به أطباء اليونان، كمعالجتهم الفالج والاسترخاء بالأدوية الباردة، بدل ما كان يستعمل عند اليونان من الأدوية الحارة، واستخدم أطباء المسلمين المرقد «البنج» فى الطب وتوسعوا فى الكى واستعملوا الماء البارد فى أحوال النزيف، وكانوا أول من نظم الصيدلة وتوسع فيها، واستجلبوا العقاقير من مختلف البلاد وأنشأوا الحوانيت لها ..

وهذا ينبئ عن العناية الفائقة التى بذلها علماء الطب فى الإسلام، ولعل ذلك أحد الدلائل على عناية الثقافة الإسلامية بالإنسان، ولقد كان للأطباء المسلمين الأثر البالغ على الدراسات الطبية، وطريقة المعالجة فى الغرب. فقد ظلت مؤلفات الرازى وابن سينا وابن زهر أساس الدراسات الطبية فى الجامعات الأوربية لقرون عديدة، كما أن مؤلفات الرازى وخاصة كتاب الحاوى نالت أوسع شهرة فى أوربا، حتى أن كتابه هذا كان أحد تسعة مجلدات تشكل مكتبة الهيئة الطبية فى باريس. وقد بين الرازى علاج بعض الحميات الطفحية كالجدرى والحصبة، واستحدث استعمال المسهلات الخفيفة، والحجامة فى حالات الشلل، والماء البارد فى حالات الحمى المستعصية.

أما ابن سينا فلا شك انه كان أعظم طبيب عرفه المسلمون، وقد استعمل كتابه القانون فى الطب، كأساس لتدريس الطب فى الجامعات الفرنسية والإيطالية طيلة ستة قرون كاملة. أى من القرن الثانى عشر، إلى القرن الثامن عشر، ومما استحدثه فى هذا الفن طريقته فى علاج أمراض القلب. ويعد من أهم ما أبدعه إيجاد طريقة العلاج النفسى، بعد

أن لاحظ أن كثيراً من الأمراض تعود أسبابها إلى أوهام أو عقد نفسية، فلفت النظر إلى علاجها بطريقة خاصة..

وكان للعلماء المسلمين القدح المعلى فى حقل الجراحة، فقد عرفوا التخدير إذ اخترعه أبو القاسم خلف بن عباس القرطبى. واستعملوا المواد الكاوية ووضع الفتائل لإخراج الصديد .. وعالجوا الأمراض البلورية فى العين بإسقاط أو استئصال العدسة البلورية وابتدعوا قطعا لتفتيت الحصاة فى المثانة ووقف النزيف الدموى ..

وكان علاء الدين بن النفيس القرشى من مشاهير أطباء المسلمين فى القرن السابع الهجرى. إذ كان ابن النفيس يمثل مرحلة الأصالة والتجديد فى الطب وله الفضل فى الكشف عن عدد من الوظائف الجسمية. وأهم ما يسجل لابن النفيس هو نظريته فى الدورة الدموية. وهذه النظرية مرت بمراحل متعددة. فمن مرحلة الغموض إلى مرحلة تعتبر الكبد هو الأصل فى الدم وحركته، وتنظر إلى القلب على أنه لا قيمة له فى حركة الدم. إلى مرحلة جالينوس التى تابعه فيها ابن سينا. والتى تميز بين حركة الأوردة والشرايين، دون أن تدرك حقيقة ما يتم فى القلب من تصفية للدم وتنقية. حتى يجئ العلامة ابن النفيس فيبين فى كتابه شرح التشريح الدورة الدموية الكاملة، ويوضح أن القلب هو مركز حركة الدم ومكان تصفيته. وأن الدم المصفى يعود ليتابع دورته فى الجسم الإنسانى، حاملا الغذاء والطاقة والحياة ..

وهكذا نجح ابن النفيس فى إثبات أن الدم ليس سائلا مستقرا فى الأوردة والشرايين المبثوثة فى الجسم. بل هو سائل متحرك يدور فى جميع أجزاء الجسم وذلك قبل أن يكتشف العالم البرتغالى هارفى فى أوربا الدورة الدموية بثلاثة قرون ..

ولا يفوتنا أن نذكر أن ابن زهر الأندلسى قد أدخل إلى علم الطب قوانين الملاحظة العلمية، وكشف عن قدرة الجسم البشرى الطبيعية على

إشفاء نفسه من أمراض معينة. كما قدم طرقا جديدة فى جراحة القصبة الهوائية، ومعالجة الفك وكسور العظام .. واشتهر أبو القاسم القرطبى بالجراحة، ووصف عملية سحق الحصاة فى المثانة وإخراجها. وابن رشد الفيلسوف الإسلامى الكبير، قد قدم بحوثا وافية عن الترياق والسموم والحميات .. وقد استفادت أوربا من ثقافة الإسلام العلمية وأجمع المؤرخون أن أوربا مدينة للمسلمين بالشىء الكثير إذ حمل المسلمون مصباح العلم الأصيل، فى زمن كانت فيه أوربا غارقة فى ظلمات الجهل.

ويقول العلامة «دريبر» المدرس بجامعة هارفارد بأمريكا:

«إن جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوربيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم وكان ملوك أوربا وأمراؤها يفدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها. وأول مدرسة أنشئت للطب فى أوربا هى المدرسة التى أسسها العرب فى «بالرم» من إيطاليا»..

ويقول المستشرق الفرنسى «جوستاف لوبون» فى كتابه حضارة العرب: «أن المستشفيات العربية كانت مكيفة من الناحية الصحية بشكل أرقى بكثير من مستشفيات اليوم. وكانت ضخمة وكان الماء والهواء يوزعان على أقسام المستشفيات بسهولة»..

وجاء فى كتاب حاضر العالم الإسلامى لشكيب أرسلان، أن مؤرخ الطب «لوكلرك» قال: «أن من التراجم كان يوجد تسعون كتابا مترجما من العربية إلى اللاتينية فى الطب منها أربعة تأليف «لابقراط» وخمسة وعشرين «لجالينوس» والباقى لحكماء الإسلام، كالرازى وأبو القاسم وابن سينا وابن زهر وكان «جيراود كريمون» وهو أعظم المترجمين همة. ومن أذكى رجال القرون الوسطى، قد أكمل فى مدة خمسين سنة ثلاثة وسبعين ترجمة أكثرها لكتب طبية ومن جملة هذه الكتب قانون ابن سينا الذى كان كافيا أن يشغل وحده حياة إنسان، ومنها كتب أبو القاسم

فى الجراحة التى عملت فى سير هـذا الفـن فـى أوربـا إلى الأمـام العمـل الأكبر»..

ولعل القارئ المسلم يعرف أن كتاب القـانون فـى الطـب لابـن سـينا كان معول الغربيين فى جامعاتهم، حتـى إنـه طبـع باللاتينيـة سـتة عشـر مرة، فى القرن الخامس عشر، وعشرين مرة فـى القـرن السـادس عشـر، وقد خصصت جامعـة برنسـتون الأمريكيـة أكـبر جنـاح فـى أجمـل بنـاء لعرض مآثر الطبيب المسلم أبى بكر الرازى الذى يعـد أول واضـع لعلـم الطب التجريبى. إذ كان يجرى التجـارب علـى الحيوانـات فيختـبر تأثـير الأدوية فيها. وأبو بكر الرازى هو أول من وضع طرقة العلاج بالمشاهدة وذلك أنه كان يدع المريض يذكر القصة ثم يسأله عـن أحوالـه مفصلـة، ثم يسأله عـن إصاباتـه السـابقة، ويـدون ذلـك، وعـرف مـرض الحصبـة والجـدرى، وأول مـن فكـر فـى العـلاج النفسـى. والطبيـب المسـلم أبـو القاسم هو أول طبيب يأمر بسـد الشـرايين عنـد العمليـات وأشـار عنـد حصـول الفسـاد المسـمى بالغرغرينـة بـالقطع العـاجل وقـد انتشـرت المستشفيات فى العالم الإسلامى كله من أقصـاه إلى أقصـاه وكـان كبـار الأطباء المسلمين يلقون فى هـذه المستشـفيات محـاضرات ودروسـا علـى الطلبة الذين جاءوا لتعلـم الطـب. وكـان الأطبـاء يجـرون لطـلاب العلـم امتحانات، ويمنحون إجازات علمية.

وفى القاهرة بنى السـلطان قـلاوون مستشـفى المنصـور وهـو أضخـم مستشفى فى القرون الوسطى، وكان به وقتئذ أقسام منفصلـة للأمـراض المختلفـة. وأخـرى للناقـهين وبـه معـامل وعيـادات خارجيـة، وحمامـات ومكتبـة ومسـجد. ومطـابخ لتقديـم الغـذاء للمرضـى. وكـان المصـابون بالأرق .. يرفه عنهم بالموسيقى الخفيفة أو برواية القصص. وكـان هنـاك مستشفيات للأمـراض العقليـة، وعيـادات خارجيـة، كمـا كـانت هنـاك مستشفيات متنقلة .. وقد اسـتخدم المسـلمون الأعشـاب والنباتـات فـى الطب وبرعوا فى زراعة النباتات الطبيـة .. ولم يقـف علمـاء الطـب فـى

الإسلام عند هذا الحد بل عكف الكثير منهم على تدوين العلـوم الطبيـة. وهناك مؤلفات إسلامية نالت شهرة عالمية مثل: طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة والقانون فى الطب لابن سينا، والشامل فى الطب، والمهذب فـى الكحل، والمختار فى الأغذية وشـرح مفـردات القـانون، وتفاسـير العلـل وأسـباب المرض، وشـرح تشـريح القـانون لابـن النفيـس الدمشـقى، والكليات فى الطب لابـن رشـد، والـذى يقـرأ كتـاب الفهرسـت لابـن النديم، يطالع أسماء عشرات الكتب فـى الطـب والأطبـاء .. وهـذا كلـه يفيد أن المسلمين كـانوا جـادين فـى طلـب العلـم، وإنـهم كـانوا علمـاء عاملين. ويجب أن تعرف يـا أخـى القـارئ أن لغـة الطـب والأطبـاء فـى المستشفيات والمحاضرات والدروس، كانت هى اللغة العربية، لغة القـرآن الكريم، ولغة الثقافة الإسلامية، ولعلك تـدرك يـا أخـى أن اللغـة العربيـة أغنت كل الثقافات التى ترجمت إليها، و لم يقل أحـد إنـها عجـزت عـن حمل هذه الثقافات الواسعة. ولا تزال اللغة العربية قادرة على الاسـتيعاب والتحليق وقبول كل ما يـترجم إليـها، ونـأمل أن يزيدنـا الوعـى الثقـافى إيماناً بقدرة لغتنا العربية على مواكبة العلم والتكنولوجيا.

* * *

التجارة والمعاملات

دعا الإسلام الحنيف إلى البيع و الشراء والتجـارة، وتبـادل الحاجيـات والمنافع. وقد جاءت هذه الدعوة الإسلامية تأكيداً للروابط الاجتماعيـة، وتدعيمـاً للأواصر الإنسـانية، أو تحقيقـا للمطـالب، وتشـجيعاً لنمـاء الثروات، وتحريكاً للمال. والإسلام يدعو إلى كل ما من شـأنه أن يسـعد الناس ويزيد فى تقدمهم ورقيهم ..

قال تعـالى فـى سـورة المزمـل: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

يقول القرطبى: سوى الله تعالى فـى هـذه الآيـة بـين درجـة المجـاهدين والمكتسبين المال الحلال، للنفقة على نفسه وعياله، والإحسان والإفضـال فكان هذا دليلاً على أن كسب المال بمنزلة الجهاد لأنه جمعـه مـع الجـهاد فى سبيل الله ..

فعن علقمة، قال رسول الله ﷺ: «ما من جالب يجلب طعاما من بلـد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهداء ثم قـرأ رسـول الله ﷺ: وآخـرون يضربـون فـى الأرض يبتغـون مـن فضـــل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله» ..

ويقول صاحب التفسـير الواضـح: وآخـرون مسـافرون يضربـون فـى الأرض يبتغون من فضل الله بالتجارة والسـعى علـى تحصيـل الـرزق مـن طريق الحلال، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله.

وأن أفضل الكسب الحلال ما كان عملاً خالصاً يزاوله الإنسان بيـده وجوارحه أو كان عملا اقتصاديا يزاوله الإنسان بعقله وخبرته وماله عـن

طريق البيع والشـراء والشـركة وغيرهـا، محاطـا ذلـك بـالصدق والأمانـة والسماحة وحسن المعاملة، فـى الأداء والأخـذ والعطـاء وغـير ذلـك مـن أسباب النماء والازدهار ..

روى الطبرانى فى الكبير والأوسط، عـن ابـن عمـر رضـى الله عنـهما قال: سئل رسول الله ﷺ أى الكسب أفضل ؟ قال: عمـل الرجـل بيـده وكل بيع مبرور وروى البخارى وابن ماجه والترمذى، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قـال: «رحـم الله عبـدًا سمحـا إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى».

وعن أبى سعيد رضى الله عنـه أن النبـى ﷺ قـال: «التـاجر الصـدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»..

وأن منازل الشهداء لا يرقى إليها إلا قوم حبسوا أنفسهم على مصالح المسلمين وصبروا على تحقيق مطالب الناس، وتيسـيرها لهـم، خاصـة مـا يتصل منها بأقواتهم ومؤونتهم، فجلبوها لهـم عـن طريـق البيـع والشـراء والتجارة. وجاء فى سورة النسـاء قولـه تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٩].

وهذه الآية - كما يقول العلماء - تتناول جانباً مـن العلاقـات الماليـة فى المجتمع الإسـلامى، لتنظيـم طـرق التعـامل فـى هـذا الجـانب لضمـان طهارة التعامل بين الأفراد عامة. إنها حلقة فى سلسلة التربية وحلقـة فـى سلسلة التشـريع. والتربيـة والتشـريع فـى المنـهج الإسـلامى متلازمـان أو متداخلان أو متكاملان. فالتشريع منظور فيه إلى التربية كما هـو منظـور فيه إلى تنظيم شئون الحياة الواقعية.

وهنا فى هذه الفقرة نجد النهى للذين أمنوا عن أكل أموالهم بينهم بالباطل، وبيان الوجه الحلال فى تداول الأموال وهو التجارة. ونجد إلى جانبه تصوير أكل الأموال بالباطل بأنه قتل للأنفس وهلكة وبوار ..

والباطل فى اللغة مأخوذ من البطل والبطلان. وهو الضياع والخسارة وفى الشرع: أخذ المال بدون عوض حقيقى يعتد به، ولا رضى ممن يؤخذ منه أو إنفاقه فى غير وجه حقيقى نافع، فيدخل فى ذلك النصب والغش والخداع والربا والغبن وإنفاق المال فى الوجوه المحرمة، والإسراف بوضع المال فيما لا يرضى به العقلاء والقمار واحتكار الضروريات لإغلائها، وجميع أنواع البيوع المحرمة ..

والنداء بصيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فى الآية يوحى بأنها عملية تطهير لبقايا رواسب الحياة المنحرفة فى المجتمع الإسلامى، واستجاشة ضمائر المسلمين واستحياء مقتضيات الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَكُم﴾ بعد النهى عن أكل الأموال بالباطل، رمز إلى أن المال المحرم يكون عادة موضع التنازع فى التعامل بين الآكل والمأكول منه.

كل منهما يريد جذبه إليه. والمراد بالآكل الآخذ على أى وجه وعبر عنه بالأكل لأنه أكثر أوجه استعمال المال وأقواها. وأضاف الأموال إلى الجميع و لم يقل لا يأكل بعضكم مال بعض، تنبيها إلى تكافل الأمة فى الحقوق والمصالح، كأن مال واحد منها هو مال الأمة جميعها فإذا استباح أحدهم أن يأكل مال الآخر بالباطل كان كأنه أباح لغيره أن يأكل ماله فالحياة قصاص.

واستثنى العمليات التجارية التى تتم عن تراض بين البائع والشارى وهو استثناء منقطع. مدلوله:

ولكن إذا كانت تجارة عن تراض منكم، فليست داخلة فى أكل أموال الناس بالباطل. والفرق بعيد بين طبيعة العمليات التجارية الربوية

وبين الخدمات التى تؤديها التجارة للصناعة وأفراد المجتمع. والبلاء الـذى يصبه الربا على التجارة وعلىالناس..

فالتجارة وسيط نافع بين الصانع والمسـتهلك. تقـوم بـترويج البضاعـة وتسويقها ومن ثم تحسينها وتيسير الحصول عليها، وهى خدمـة للطرفـين والانتفاع عن طريـق هـذه الخدمـة. انتفـاع يعتمـد كذلـك علـى المـهارة والجهد ويتعرض فى الوقت ذاته للربح والخسارة. والربا على الضـد مـن هذا كله، يثقل الصناعة بالفوائد الربوية التى تضاف إلى أصل التكـاليف، ويثقل التجارة والمستهلك بأداء هذه الفوائد التى يفرضها على الصناعـة، وهو فى الوقت ذاته يوجه الصناعة والاستثمار كله وجهة لا مراعاة فيها لصالح الصناعة ولا لصالح الناس المستهلكين.

وفى الآية كما يرى الباحثون إيماء إلى وجوه شتى من الفوائد:

أولاً: أن مدار مراحل التجـارة قـائم علـى تراضـى المتبـايعين، فـالغش والكذب والتدليس فيها من المحرمات.

ثانياً: أن جميع ما فى الدنيا من تجارة أو متاع لا بقاء له ولا ثبات فـلا ينبغى أن يشغل العامل عن الاستعداد للآخرة، التى هى خير وأبقى..

ثالثاً: جرى التسامح فى مكسب التجارة إذا كان أحد العوضين أكبر مـن الآخـر أو إذا كـان سبب الزيـادة براعـة التـاجر فـى تزيـين سـلعته وترويجها. والحكمة فى ذلك الترغيب فـى التجـارة لشـدة حاجـة النـاس إليـها، والتنبيـه إلى استعمال مـا أوتـوا مـن الذكـاء والفطنـة فـى اختيـار الأشياء، والتدقيق فى المعاملة حفاظا للأموال ..

ولما كانت التجارة أسلوب تربوى وحضـارى، فقـد نشـطت الحركـة التجارية فى عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، نشاطا عجيبا، سواء فـى البر أو فى البحر «وهذا ما وسع أفق الناس الجغرافى وزاد من حسن سمعة التجار المسـلمين فـى المعـاملات، وكـانت بغـداد تتحكـم فـى الأسـواق

والأسعار. وكان التجار على العموم يركبون الجمال إلى السويس ويعبرون البحر الأحمر، ثم يعبرون الصحراء ثانية إلى جده أو يبحرون إلى الخليج «الإسلامى» والهند والصين أو يرحلون إلى إنطاكية إلى الفرات إلى بغداد إلى فارس واضطرتهم التجارة إلى معرفة لغات كثيرة من فارسية وأسبانية وصينية وكانوا يستحضرون من كل بلد خير ما فيه ويبيعونه فى البلاد الفقيرة إليه وبعض التجار الكبار كانوا يعملون الحيل فى الاتصال بملوك الأقطار، وإنشاء علاقات معهم، لتسهيل الشئون التجارية ويحكى أن بعض التجار المسلمين اتصلوا بملوك الصين، وان بعض تجار اليونان والفرس اتصلوا بملك سيلان».

وكانت للمسلمين رحلات بحرية كالرحلات البرية. ولهذا أنشأوا المراكب الكبيرة للملاحة فى البحر الأبيض المتوسط. وكانت مراكب المسلمين شراعية ويحدثنا التاريخ أن المركب كانت تحمل بضعة آلاف راكب وفيها حوانيت للبيع ..

جاء فى كتاب «ظهر الإسلام» لأحمد أمين: «أن العرب منذ اتصلوا بالعالم الخارجى أثبتوا انهم مرنون قابلون لمسايرة الحضارات المختلفة وإقامتها. وانهم أذكياء ذو حيوية وخيال فسيح. وقد كان العرب فى هذا العصر فى غاية النشاط، وحسن الرحلات كونوا علاقات تجارية فى أقصى الأرض فكونوا علائق مع الصين وبعض البقاع الروسية وبعض مجاهل أفريقيا، ولم تمنعهم صعوبة المواصلات وسوء الاستعداد من الرحلات إلى أقصى البلاد» . . .

ولكثرة الأعمال التجارية التى انتشرت فى المملكة الإسلامية، وصعوبة نقل الأموال وخطورتها. أنشأ المسلمون نظام الحوالات. وهى مشتقة من التحول لأنها تنقل الحق من ذمة المحيل إلى ذمة المحال عليه، وعرف المسلمون كذلك «السفتجة» وهى أن يعطى شخص مالاً لآخر وللآخر مال فى بلد آخر، فيوفيه إياه هناك. والإسلام لا ينهى عما ينفع

الناس ويصلح من شئونهم .. وتعد الإحالة على البنوك تبرئة للذمة إذا التزم البنك المحال عليه بالدفع. وتذكر كتب التاريخ الإسلامى أن «ناصر خسرو» تسلم صكا من تاجر بأسوان بخمسة آلاف درهم معنونا بوكيل تاجر فى «عيذاب» ليتسلمه منه. وكان فى الصك: «اعط ناصرا كل ما يطلبه وقيد الحساب عليه» ..

ويحكى ابن حوقل: أنه رأى صكا باثنين وأربعين ألف دينار لتاجر فى «سد نماسة» وهذا يدل على اهتداء المسلمين إلى المعاملات التجارية بطريق الصكوك، وانهم هم الذين أوجدوا نظام الحوالات و«الشيكات» والبنوك وكان الصرافون والوكلاء يقومون مقام البنوك ..

والباحث المنصف يلاحظ أن المسلمين هم الذين أسسوا المعاملات الاقتصادية فى العالم الإنسانى، وانهم هم الذين ساهموا فى قيام التجارة وتحقيق مطالب الإنسان. ومن أجل ذلك صنعوا السفن الضخمة لتكون من وسائل النقل داخل البحار والمحيطات واخترعوا البوصلة البحرية لتساعد على القيام بأسفار بحرية إلى جميع أنحاء العالم ولقد وصل المسلمون إلى ذلك حينما كانوا يطبقون الإسلام سلوكاً ونظامًا، ولعلك تعرف أن التجار المسلمين نظرا لسلوكهم الإسلامى الرائع كانوا سببا فى انتشار الإسلام فى شعوب كانت تائهة فى عماء الجهل .. ومن هنا يمكن أن نقول فى صدق أن التجارة فى الإسلام دعوة وتوجيه وتربية وإرشاد وأن التجار هم أكثر الناس اتصالاً بالأفراد، وأشد التصاقًا بما يهم كل الناس.

ولهذا السبب كانت مسئوليتهم كبيرة وكانوا أهلا للصدق والوفاء والدعوة الإسلامية.

* * *

المسلمون والأمن الغذائى

القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، فهو يوقظ القلوب، ويشرح الصدور، ويصلح العيوب. وهو أعظم مرشد إلى الفلاح، من تدبره فاز بسعادة الدنيا والآخرة ومن درس الحقائق العلمية التى أشار إليها، هدى إلى أفضل السبل .. والعلماء المسلمون كما برعوا فى علوم القرآن الكريم، وعلوم الحديث النبوى، وعلوم اللغة العربية، كذلك قد تعمقوا فى علوم الحياة والحضارة الإنسانية فكان منهم نوابغ العلم والعلماء، وقادة المعرفة، وقد اهتم العلماء المسلمون بالفكر الزراعى، وعلوم الزراعة اهتماماً واسعاً، ساعد على انتشار الزراعة، وأدى إلى وفرة المحاصيل وتنوعها.

قال تعالى فى سورة الرعد: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وقال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

دروس تطبيقية يقدمها القرآن الكريم للمسلمين أنها أمثلة علمية في جانب هام من جوانب الحياة العملية، تدفع بالعلماء إلى البحث والنظر..

فالله سبحانه وتعالى هو الذى أنزل من السحاب الذى فى السماء ماء، فجعل منه كل شئ حى، وأخرج به المولى جل شأنه، نبات كل صنف من الأصناف، فالتربة واحدة والماء واحد، ولكن الشكل والطعم مختلف .. فى الشجرة الواحدة ثمر حسن وآخر ردىء، ثم ثمر ناضج وآخر نىء، ثمر طعمه جميل وآخر قبيح. وأخرج الله من النبات شيئا غضاً، وهو ما تشعب من أصل النبات وذلك كورق النجم، وغصن الشجر، ويخرج من هذا الأخضر، حباً جافاً صلباً، متراكباً بعضه فوق بعض ..

أما الشجر فهذا النخل عنوانه، يخرج من طلعها قنوان دانية القطوف سهلة التناول، ويخرج الله من النبات الأخضر، جنات من أعناب وغيره من الفواكه والثمار، كالزيتون والرمان، مشتبها فى الشكل والورق والثمر، وغير مشتبه فى لون الثمر وطعمه. فمنها الحلو والحامض، بل ومنها ما هو كاليوسفى والبرتقال أو كالنارنج. انظر إلى ثمر ما ذكر نظرة اعتبار». ذلك خلاصة ما جاء فى التفسير الواضح. نعم لقد بسط الله الأرض وهيأها لنا وأودع فيها من الخيرات، ومواد الخصوبة والنماء، وأنزل عليها من السماء ماء، فأنبت به جنات وحب الحصيد، بما لو استخرجه الإنسان على وجهه، واستغله فى الوجه المطلوب، لحقق بعض الغاية التى من أجلها خلق ولها أعد. ومن ثم فقد أمر الله باستغلال الأرض وزراعتها ووعدنا على ذلك أجرًا. جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه فان أبى فليمسك أرضه». وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه رسول الله ﷺ انه قال: «ما من رجل يغرس غرساً إلا كتب الله له من الأجر قدر ما يخرج من ذلك الغرس».

وروى مسلم عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يغرس مسلم غرساً، ولا يزرع زرعا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شئ إلا كانت له صدقة»..

هناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم، وأحاديث شريفة، حفلت بها كتب السنة، تتحدث عن النبات، والأشجار، والثمار، والفواكه، وتحث المسلمين على الاهتمام بالزراعة. ومن هذا المنطلق الإسلامى ذهب العلماء يبحثون فى النبات والزرع. وقد وجدوا أن النبات يتكون من وضع الحبة أو النواة فى الأرض الرطبة وذلك أن الحبة أو النواة إذا وضعت فى الأرض الرطبة، ومضت مدة عليها، ظهر فى الحبة أو النواة، من أعلاها شق، ومن أسفلها شق، فالشق الأعلى يخرج منه جزء هو الشجرة الصاعدة فى الهواء، والشق الأسفل يخرج منه جزء آخر هو الشجرة الهابطة فى الأرض، وهى المسماة بعروق الشجر«الجذور»..

ولقد اعتمد العلماء الباحثون على المعيار العلمى الذى يتخذ الملاحظة الموضوعية والتجربة أساسا لكل دراسة. ومن هنا تمكن المسلمون من المعرفة بأسس البيئات الزراعية، والمناخ الملائم للزراعة، والفصول المناسبة...

ويقول الكاتب أحمد أمين متحدثا عن الزراعة فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية «وأما الزراعة فاشتهرت فى هذا العصر، حتى ربما أمكن العالم الإسلامى أن يكفى نفسه فكانت العراق تكثر من زراعة الحنطة، والهند من الأرز، وفلسطين ومصر من القلقاس. واشتهرت فى البلدان كلها زراعة الكروم، واشتهرت زراعة العنب فى اليمن وهو كثير الأصناف، يجود كل صنف منه فى بلد، واشتهرت فى هذا العصر فاكهتان وهما الاترج والنارنج. وكانت هاتان الفاكهتان نادرتين فى هذا العصر، وقد جلبتا من الهند إلى عمان والبصرة والعراق والشام، واشتهرت زراعة البطيخ، واشتهر شمال فارس بجودة الفاكهة، حتى بلغ

أن كان البطيخ يقدد ويحمل إلى العراق وعلا شأن الرمان، وكان أحسن التفاح فى ذلك العصر تفاح الشام حتى كان مضرب المثل فى الحسن. ويحدثنا الثعالبى فى لطائف المعارف بأنه كان يحمل إلى الخلفاء فى كل سنة منه ثلاثون ألف تفاحة، واشتهر فى العراق والحجاز ومصر تصدير مقادير كبيرة من الثمر، وكان الناس فى مصر يستخدمون زيت المصابيح من جذور البنجر واللفت، ويسمونه الزيت الحار. ولحاجتهم إلى السكر كان يزرع فى كثير من البلدان، وعملوا المربات والفواكه المحفوظة»..

ويقول العلامة سيد أمير على مؤلف كتاب روح الإسلام: «ووصل العرب البلاد التى نزلوا فيها بشبكات من القنوات، وادخلوا فى أسبانيا نظام الرى بواسطة البوابات والدواليب والمضخات، وكان كثير من البقاع التى تبدو اليوم جرداء قاحلة حافلة بأشجار الزيتون وكانت ضواحى أشبيلية وحدها تشمل فى عهد المسلمين على عدة آلاف من معاصر الزيت. وأدخل المسلمون الغلات الرئيسية من الأرز والسكر والقطن، وسائر الفواكه التى تنمو فى الحدائق والبساتين، فضلاً عن كثير من النباتات الأقل أهمية مثل الزنجبيل والزعفران وغيرهما»..

والعلماء المسلمون لم يقفوا عند هذا الحد من التقدم الزراعى. بل وضعوا تجاربهم وملاحظاتهم فى مؤلفات، تشهد صراحة باتساع أفقهم العلمى وتدل على الجهود الصادقة والمخلصة. وقد كانت هذه المؤلفات ذات فائدة كبيرة، إذ تناقلها الناس لمعرفة ما جاء بها ..

ومن رجال الفكر الإسلامى أبو ضيفة الدينورى وهو أحمد بن داوود ابن ونند وكان يعرف بكتاب النبات. وهو من علماء القرن الثالث الهجرى وممن اشتهروا بالبحث فى النبات رشيد الدين بن الصورى، وكان يصطحب معه مصوراً حين البحث عن النباتات فى موطنها ..

وابن وحشية له كتاب فى الفلاحة يعد مرجعاً فى النباتات الطبية، واشتهر ابن العوام بكتابه الكبير «الفلاحة» الذى ضمنه كثيراً من تجاربه.

وقد عالج ابن العوام فى كتابه هذا كل العلـوم الزراعيـة تقريبـاً بأسـلوب سهل ..

وهكذا بذل العلماء المسـلمون مـا فـى وسـعهم مـن جـهود للوصـول بالأمـة الإسـلامية إلى خـير مـا قـدر لهـا. وكـان علماؤنـا بحـق جديريـن بالتقدير ونأمل أن يتقدم العلماء المسلمون بما يفيد المسلمين ليكونوا خـير خلف لخير سلف..

* * *

القسم الثالث

الحضارة الإسلامية والمستقبل

- إنسانية الإنسان
- حقوق الحيوان فى الإسلام
- الأخلاق والسلوك
- البر فى العقيدة والعمل
- الجامعة الإسلامية
- مفهوم القوة فى الإسلام
- المسلمون والغرب والشرق
- المعول الذى حطم الحضارات
- الميزان الإسلامى
- الحضارة الإسلامية من جديد

إنسانية الإنسان

الإنسان أكرم الكائنات عند الله، خلقه فى أحسن تقويم، وتولاه بالإلهام والتعليم، وحلاه بالعقل الكريم، والقلب السليم ..

فقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وفى هذه الآية يخبر الله سبحانه وتعالى .. أنه خلق الإنسان فى أحسن صورة وشكل، معتدل القامة، مستوياً على عكس الحيوان.

وبجانب هذا.. أعده الله لشرف خلافته فى الأرض..

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وهو وإن كان مخلوقاً من الطين إلا أنه منح من شرف الروح ما تقصر دونه الخواطر وتعيا عن إدراكه المدارك ..

وناهيك بروح نسبها الله إلى نفسه .. وأسجد لحاملها ملائكته.

فقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

بهذه الروح امتاز الإنسان عن سائر عوالم الطبيعة وصار عالماً وحده حاصلاً على القدرة فى استخدام الوجود وتسخيره فيما ينفع .. وقد أمده الله بما يناسب مطامحه من حول وقوة ووطأ له أكناف الكائنات وذللها له .. ومن هنا ندرك .. أن الإسلام ينظر إلى الإنسانية عامة نظرة التكريم والاحترام ويرتب على ذلك حقوقاً عامة لجميع البشر..

فالعدل والرحمة والمساواة فى الحقوق والواجبات .. أمور يفرضـها الله لجميع الناس ما لم يكن اعتداء وخروج على سنن الله ..

قــــال تعـــــالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فكرمنا فى الآية الكريمة تضعيف «كرم» أى جعلنـا لهـم كرمـاً وشـرفاً وفضلاً.. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم علـى هـذه الهيئـة فـى امتـداد القامة وحسن الصورة وحملهم فى البر والبحر .. مما لا يصح لحيـوان بـل الآدمى فقط يحمل بإرادته وقصده وتدبيره ..

وتخصص بمـا خصصـهم الله بـه مـن المطـاعم والمشـارب والملابـس .. وهذا لا يتسع فيه حيوان اتسـاع بنـى آدم لأنـهم يكسـبون المـال خاصـة دون الحيوان ويلبسون الثياب ويأكلون المركبـات مـن الأطعمـة.. وغايـة كل حيوان أن يأكل لحمًا نيئًا أو طعامًا غير مركب..

والصحيح الذى يعول عليه.. أن التفضيل إنما كـان العقـل الـذى هـو عمدة التكليف وبه يعرف الله ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمـة وتصديـق رسله[1].

فالناس جميعًا على اختلاف أجناسهم وتمـايز ألوانـهم وتبـاعد ديـارهم وأقطارهم يرجعون إلى أب واحد وأصل واحد.

وكثيرًا ما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الحقيقـة فـى آيـات كثـير مـن القرآن الكريم وبينها فى أساليب شتى وبعبارات رائعة.

ولماذا كل هذا الاهتمام؟ لا شك أنه لكى يرعى النـاس هـذا الاعتبـار ويعيشوا فى إخاء وتعاون وتعارف وتبادل ..

---

(١) أحكام القرآن للقرطبى. الجزء العاشر. ص ٢٩٣.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أى فرعكم من أصل واحد وهو نفس أبيكم آدم.

وجعله تعالى إياهم صنوفاً مفرعة من أروقة واحدة .. من موجبات الاحتزار عن الإخلال بمراعاة ما بينهم من حقوق الأخوة .. وفى الوقت نفسه .. مدعاة للتعارف والتبادل والتعامل..

وقوله تعالى فى الآية نفسها: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى من نفسها وجنسها وذلك ليكون بينها ما يوجب التضام فان الجنسية على الضم ..

وقد أوضح هذا بقوله فى آية أخرى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وقوله تعالى فى الآية السابقة: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ أى نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منه، بطريق التوالد، والتناسل، رجالا كثيرا ونساء .. وترك التصريح اكتفاءًا بالوصف المذكور ..

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨].

فالله هو الذى أنشأ الإنسانية من نفس واحدة، وهى الإنسان الأول، الذى تسلسل منه سائر الناس، بالتوالد .. وهو آدم عليه السلام ..

وفى إنشاء جميع الناس من نفس واحدة، آيات بينات على قدرة الله، وعلمه وحكمته ووحدانيته..

وفى التذكير بذلك .. إيماء إلى ما يجب من شكر نعمته، وإرشاد إلى ما يجب من التعاون بين البشر ..

وأن يكون هذا التفرق إلى شعوب وقبائل .. مدعاة إلى العمل الجاد والتعاون الصادق .. لا إلى التعادى والتقاتل، وبث روح العداوة، والبغضاء بين الناس؟.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

كذلك أحاديث الرسول الأمين محمد ﷺ تجئ مذكرة الناس، بحقيقة رجوعهم إلى أب واحد .. تأكيداً وتوضيحاً لتعاليم القرآن الكريم وتقريراً لمبادئه وآدابه ..

روى الطبرانى أن النبى ﷺ خطب الناس بمنى فى وسط أيام التشريق، وهو على بعير .. فقال: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وأن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود، إلا بالتقوى .. ألا هل بلغت ؟ قالوا: نعم .. قال: فليبلغ الشاهد الغائب»(١).

وعن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «أن الله لا ينظر إلى أحسابكم. ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم .. ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم»(٢).

فاهتمام الإسلام بالناس فيه ترسيخ معنى الإنسانية العام، فى نفس المسلم الذى يقرأ القرآن ويستمع إليه ويعمل به .. كما أن هذا كله .. يبين وحدة الجنس البشرى .. والقرآن الكريم .. لا يخاطب العرب فقط ولا قومية معينة ولا شعباً معيناً .. بل يخاطب الإنسان بوجه عام ..

---

(١) التاج الجامع للأصول . الجزء الأول . ص ٦١ رواه الشيخان .
(٢) التاج الجامع للأصول . الجزء الأول . ص ٦١ .

فالإسلام الحنيف جاء ليقيم بين البشر جميعاً رابطة الإنسانية القائمة على ارتباط البشر بالله الخالق عز وجل..

ومن هذا تعرف أن الإسلام يلائم الفطرة التى فطر الله الناس عليها .. فهو يؤكد فى وضوح أن الدين الإسلامى قد نظر نظرة فاحصة دقيقة للإنسان فى ذاته وتركيب كيانه النفسى والخلقى والاجتماعى ..

ونظر إلى الحياة التى يحياها هذا الإنسان فى دنياه .. فعنى بالحياة والأحياء ورسم لها أكمل صورة تلائم ما يصلحهما معاً ..

فالحياة فى الإسلام تخضع لنظام دقيق لا يسمح لجانب منها أن ينمو على حساب جانب آخر .. وإنما تتوازن جوانب الحياة كلها على نسق فريد جاء به الإسلام دون سواه من الأديان أو النظم الوضعية .. هذه نظرة الإسلام للحياة .. وأما الأحياء من بنى البشر فإن الإسلام نظر إليهم نظرة العارف بأسرارهم وما يصلحهم ..

«واعترف الإسلام بأن للإنسان مطالب، لروحه، وعقله، وبدنه .. ونظمها بحيث تحقق له أفضل ألوان الحياة».

الإنسان فى داخل نفسه، ومع حاجاته الذاتية الروحية، والعقلية، والبدنية والإنسان فى أسرته .. تلك المملكة الصغيرة التى يصلح المجتمع العالمى كله بصلاحها وينهار ويتهاوى على ساكنيه بفسادها، أو جنوحها ..

والإنسان مع المجتمع الكبير .. والإنسان مع الكون كله .. الإنسان فى كل هذه المجالات موضع اهتمام الإسلام .. ومن أجله شرع تلك النظم الخالدة الصالحة، لكل زمان ومكان، والمحققة للسعادة فى الدنيا والآخرة ..

الإنسان فى حد ذاته نفسه .. العالم المترامى، المليء بالرغائب والحاجات التى يسعى عمره لتحقيقها .. وتلك الجوارح من سمع،

وبصر، وفؤاد وأيد وأرجل.. يسخرها الإنسان لإشباع حاجاته الروحية، والعقلية والبدنية»[1].

والشخصية الإنسانية حقيقة حية.. والأسرة الاجتماعية فى الإسلام، حقيقة حية ..

والنوع الإنسانى الذى تنتمى شعوبه، وقبائله، إلى أسرة كبيرة يجعلها التعارف هو كذلك حقيقة حية..

والإسلام لا يهدم شيئا من كيان الاجتماع الذى استفادة بنو الإنسان، من أطوار حياتهم الاجتماعية فى الحقب الطوال .. لأن المفهوم من سير الهداية الإلهية كما يسردها القرآن الكريم..

إن حياة النوع الإنسانى .. تاريخ متصل، يتمم بعضه بعضا، وتنتهى إلى التعارف بين الشعوب والقبائل، فى أخوه عامة، لا فضل فيها لقوم على غيرهما إلا بالعمل الصالح .. ولهذا يحرص الإسلام على كيان الاجتماع فى الشخصية الفردية وفى الأسرة، وفى الإيمان بوحدة النوع..[1]

لكن ما مكان الإنسان من الكون كله؟ ..

ما مكان الإنسانية من هذه السيارة الأرضية، بين خلائقها الأحياء؟

ما مكان الإنسان بين كل جماعة من هذا النوع الواحد؟

أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع، يضمها عنوان: «الإنسان»؟

وهى أسئلة لا جواب لها، فى غير عقيدة دينية، تجمع للإنسان صفوة عرفانه بدنياه وصفوة الإيمان بغيبها، تجمع له زبدة الثقة بعقله، وزبدة الثقة بالحياة حياته هو .. وحياة سائر الأحياء .. والأكوان ..

---

(١) مجلة كلية اللغة العربية حامعة الرياض المجلد الرابع ص ٤٤.. السعودية.

(١) الشيوعية والإنسانية. عباس العقاد. دار الهلال عدد رقم ١٤٦ .

وهذه العقيدة الدينية التى نستلهم فيها الجواب .. لا توجد اليوم لتنبذ غدا ولا توجد على الأيام للعارفين .. دون الجاهلين .. وللعاقلين دون الخاملين .. ولمن يطلبون الخير للناس .. دون من يعتقدون تسليمًا ورهبة.. ولمن يسعون سعيهم إلى العلم والإيمان .. دون من يقعدون فى مواطنهم منتظرين .. وقد يقعدون وهم يجهلون انهم قاعدون، لا يعلمون ما الخبر؟ إن علموا انهم منتظرون..

هذه العقيدة بنية حية.. قوامها دهور وأمم، ومعايش، وآمال ونفوس خلقت، ونفوس لم تخلق ..

والمنصف لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة فى الإنسان، والإنسانية أصح، وأصلح من عقيدتهم التى يستوحونها من القرآن الكريم ..

لأن الناس استمعوا إلى المادية التاريخية .. فقالت لهم: إن الإنسانية عملة اقتصادية فى سوق الصناعة والتجارة .. تعلو وتهبط فى طبقاتها، بمعيار العرض والطلب، وصفقات الرواج والكساد ..

واستمع الناس إلى الفاشية .. فقالت لهم: إن الإنسان واحد من العناصر سيد وعنصر مسود .. وأن أبناء الإنسانية جميعا عبيد للعنصر السيد ..

والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار، بغير اختيار ..

واستمع الناس إلى العقلية .. فقال لهم قائل منها: إن إنسانيتهم شىء لا وجود له.. ووهم من أوهام الأذهان .. وإن الشىء الموجود حقا، هو الفرد الواحد. وبرهان وجوده حقا .. أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى..

وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الإلهية عن مكان هذا الإنسان فى الأرض والسماء، ومكانه من أخواته فى آدم وحواء ..

سمعوا: انه روح وجسد .. ودنيا وآخره .. ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره.. ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء ..

وسمعوا: انه إنسانان: إنسان صحيح مقبول .. وإنسان زائف مدخول.. صحيح مقبول كل من اجتباه مولاه على هواه.. وزائف مدخول كل من نفاه..

وسمعوا: أن الإنسان يولد بذنب غيره، ويموت بذنب غيره.. ويبرأ من الذنب بكفارة غيره، ويمضى بين النعمة واللعنة، بقدر من الأقدار ..(١)

وبعض المذاهب المادية كالشيوعية وما يتفرع عنها من مذاهب .. لم تقف عند هذا الحد بل فلسفت الحياة فلسفة خاصة، وأرادت فى فلسفتها تحقيق آمال الإنسانية، عن طريق القضاء على الثروات والملكيات .. ففقد الإنسان الكرامة وحقه فى الحياة .. وأرادت هذه الفلسفة الاشتراكية أن تسعد الإنسان عن طريق ملء بطنه فقط .. فاشترت منه الحرية رغما عنه، وأعطته مقابل ذلك خبزا يأكله كما يأكل الحيوان .. وأرادت أن تزيده سعادة فى نظرها. فساوته بالآلة. وإحاطته برعاية حمراء كالتى تستحقها الآلة، واصبح الإنسان آلة فى (ماكينة) أو ترسانة فى آلة .. وبهذا تحول الإنسان إلى حيوان.. يساق كما يساق الحيوان.

وجربت الإنسانية: الرأسمالية المجردة من معانى الإنسانية .. فوجدت أنها هى الأخرى قد فلسفت الحياة فلسفة خاصة.. لتسعد إنسانها الرأسمالى فحسب.. بل ما كان منها إلا أن أطلقت لهذا الإنسان الرأسمالى حريته المحجورة وحررت غرائزه المكبوتة، وألهبت مطامعه المجنونة .. وجعلت الدولة حارسة لهذه الحريات حتى ولو تحولت الحريات إلى انحراف فى الغريزة وإلى شذوذ فى الطبيعة وإلى عدوان على حريات الآخرين وإلى استعمار بلاد الأبرياء، وامتصاص دماء الشعوب ونهب

(١) الإنسان فى القرآن . عباس محمود العقاد .

خيراتهم: ونتيجة لهذه الفلسفة الرأسمالية، انتشرت أسواق النخاسة فى العواصم .. لبيع الشعوب والتآمر عليها والعدوان على أراضيها، وامتصاص خيرتها، واستنزاف مواردها ..

وتعامل الناس مع الصهيونية واليهودية .. فوجد الناس أن التلمود كتاب اليهود المقدس يقول:

تتميز أرواح اليهود عن باقى الأرواح بأنها جزء من الله، كما أن الابن جزء من والده»..

«النعيم مأوى أرواح اليهود، ولا يدخل الجنة إلا اليهود .. أما الجحيم فمأوى الكفار من المسيحيين والمسلمين، ولا نصيب لهم فيه سوى البكاء لما فيه من الظلام والعفونة والطين»..

«الإسرائيلى معتبر عند الله أكثر من الملائكة، فإذا ضرب أمى إسرائيليا فكأنه ضرب العزة الإلهية ويستحق الموت»..

«بما أن اليهود يساوون أنفسهم مع العزة الإلهية. فالدنيا وما فيها ملك لهم ويحق لهم التسلط على كل شىء فيها»..

«نحن شعب الله فى الأرض وقد أوجب علينا أن يفرقنا لمنفعتنا. ذلك أنه لأجل رحمته ورضاه عنا، سخر لنا الحيوان الإنسانى، وهم كل الأمم والأجناس سخرهم لنا لأنه يعلم أننا نحتاج إلى نوعين من الحيوان .. نوع أخرس كالدواب والأنعام والطير .. ونوع ناطق كالمسيحيين والمسلمين والبوذيين وسائر الأمم من أهل الشرق والغرب .. سخرهم لنا ليكونوا فى خدمتنا»(١).

أما الناس فى القرآن الكريم .. فهم غير ذلك كله .. فهم متدبرون، ويستمعون إلى أصوات العقل كما يستمعون إلى صوت الإيمان إذا اطمأنوا إليه.

---

(١) انظر التلمود.

الإنسان فى عقيدة القرآن هو الخليفة المسئول، بين جميع ما خلق الله.. يدين بعقله، فيما رأى وسمع .. ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب مما لا تدركه الأبصار والأسماع ..

والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة، لها نسب واحد، وإله واحد، أفضلها من عمل حسنا، واتقى سيئا ..

وإننا نرى أن الإنسان فى القرآن الكريم .. ذكر بغاية الحمد، وذكر بغاية الذم، فى الآيات المتعددة، وفى الآية الواحدة

ولا يعنى ذلك .. أنه يحمد ويذم فى آن واحد، وإنما معناه أنه أهل للكمال والنقص، بما فطر عليه من استعداد لكل منها .. فهو أهل للخير والشر. لأنه أهل للتكليف..

والإنسان مسئول عن عمله، ولا يؤاخذ فرد بوزر فرد، ولا أمة بوزر أمة.

قال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].
وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].
وقال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

أما مناط المسئولية فى القرآن .. فهو جامع لكل ركن من أركانها: يتغلغل إليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الدينى أو التشريع فى الموضوع:

فالإسلام الحنيف .. ينظر إلى الإنسانية نظرة تضعه فوق مستوى الكائنات الحية جميعها، فى هذا الكوكب الذى أقامه الله فيه، ليكون خليفة له عليه..(١)

(١) الإنسان فى القرآن عباس العقاد ..

وقد استعمل القرآن الكريم، لفظ الإنسان نحواً من ثمانين مرة .. فتحدث عن خلق الإنسان..

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].
﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].
﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

وتحدث عن نفسية الإنسان

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].
﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].
﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وخاطب الإنسان مذكراً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وكلمة الناس الدالة على الجنس البشرى، يتكرر استعمالها نحوا من مائة وأربعين مرة .. كثيراً منها ورد خطاباً للبشر عموماً..

كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣].
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨].
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣].

وورد فى معرض الحض على تقديم الخير للناس:

﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].
﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وكلمة الناس استعملت فى القرآن الكريم. بمعنى الجنس البشرى عموما، لا بمعنى المسلمين أو العرب. بدليل قوله تعالى فى الآيات التالية، مما لا يمكن حمله إلا على الناس عموما ..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩].

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فالقرآن الكريم لا يخاطب قومية معينة، ولا شعبا معينا .. بل يخاطب الإنسان بوجه عام .. ويتحدث عن الأمم: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ [الرعد: ٣٠].

واستعمل القرآن كذلك كلمه البشر، للدلالة على الجنس الإنسانى الواحد.. وقد استعملت هذه الكلمة، فى أكثر من خمس وثلاثين آية، كقوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ [ص: ٧١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وقولـــــــــه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١].

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

والآيـــــة القرآنيـــــة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣].

تشير بوضوح إلى أن كلمة الناس .. تشمل:

أولا: الذكور والإناث .. فهما جنس واحد. كما أشار إلى ذلك فـي آيات أخرى ..

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم: ٢١].

﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

ثانيا: تشير الآية بوضوح إلى أن البشـرية تتـألف مـن مجتمعـات قبليـه وشعوب أو أقوام .. وكلمة الناس هى التى تعبر عن الجنـس العـام الـذى يشملهم جميعا ..

وأخيرا فإن الآية تشير إلى اتجاه تطور البشـرية، أسـرا وقبـائل وشـعوبا فى اتجاه التعارف، والتعارف هو المعرفة المتبادلـة مـن جميـع الأطـراف .. وهو الشرط الأساسى لتحقيق التعاون الذى أوصى بـه القـرآن فـى قولـه تعـــــالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

إن الإسلام جاء كما يفهم من النصوص القرآنية، ليقيم بين البشـر جميعـا رابطة الإنسانية، القائمة على ارتباط البشر جميعا بالله الخالق جل وعـلا.. فهم جميعا عباد الله .. لا ليجعل شعبا معينا، شعبه المختار ..

والرسول الذى أمر بتبليغ الإسلام .. خوطب في القرآن على هذا الأساس.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ولم يرسل ليكون هاديا لقومه وحدهم، كما أرسل موسى هدى لنبى إسرائيل، وكما أرسل عيسى إلى خراف إسرائيل الضالة .. إنما أرسل ليكون هو وقومه للناس جميعا[1].

﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

إن هذا الاتجاه الإنسانى .. ظاهر فى تعاليم الإسلام، وتوجيهاته.. والقرآن يصرح بأن الإنسان هو خليفة الله فى الأرض..

والقرآن حين يتحدث عن الإنسان.. فإنه يتحدث عن الإنسان حديثًا يملأ الصدر بدفء الأمل، وسعة الرجاء، ويفتح عليه صفحات مشرقة للوجود. تغرى الإنسان بالوقوف عند كل موجود.. وكيف لا.. وهو يسمع نداء الحق سبحانه وتعالى له بقوله:

﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ

(١) استراتيجية العالم الإسلامى . ص ٩٩ مكة المكرمة . وزارة الحج والأوقاف بتصرف..

شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ
وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ
لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى
ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن
لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٥ - ١٨].

وتوحى هذه الآيات بما يلى:

أولا: تعدد نعم الله، وآلائه على البشر، وأن هذه النعم وفيرة فى الأرض، وفى السماء، وفى البحر..

ثانيا: النظام الذى وضعه الله للعالم العلوى .. ثابت لا يختل، فكل كوكب من هذه الكواكب. يجرى فى مداره، حسب نظام موضوع، وتوقيت مخصوص..

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

ثالثا: توحى الآيات بالأدلة الكافية .. على أن الله واحد لا شريك له، وأنه الخالق للسماوات والأرض، وما فيهما ..

فالإنسان فى الإسلام ذلك الذى يمتلئ كيانه بمشاعر العزة هو السيادة والقوة والاستفادة بكل ما فى الأرض، من قوى يسخرها لسلطانه،

ويقوم بها على خلافه الله فى الأرض مستصحبا فى ذلك عقله، المحرر من كل ولاء لغير الحق، المطلق من كل قيد .. غير قيد البر والإحسان ..

ومن وراء كل هذا .. الإنسان الذى يدخل فى إطار الرسالة الإسلامية التى جاء بها الرسول الأمين محمد صلوات الله وسلامه عليه .. لا يستطيع إلا أن يصدق بمحمد ﷺ وبالنبيين والمرسلين الذين بعثهم الله قبل رسالة محمد ﷺ لإرساء قواعد الإخاء الإنسانى ..

وهذا يشكل حلقة فى وحدة الإيمان التى أكد عليها الإسلام، الدين الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام .. وتبناها فى جانبه العقائدى وتحدث عنها القرآن الكريم.

ووحدة الإيمان هذه حقيقية تفرضها وحدة المصدر بصورة قاطعة.. لا تقبل الجدل أو التشكيك، ولا يغير من واقعها، وجود فواصل البعد الزمنى، بين الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى عباده .. وربما يكون لعامل الزمن أثره الواضح فى اختلاف التشريعات التى يفرض فيها أن تنسجم مع المستوى الفكرى، والمعاش لمن تكون لهم .. ولكن الإيمان يبقى واحدا فى أساسه ..

وثمة آيتين فى القرآن الكريم .. تؤكدان هذه الحقيقة .. حقيقة الإيمان، وتغير التشريعات.. قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

فالآية الأولى: تعنى وحدة الإيمان فى أسسه..

والآية الثانية: تعنى متغيرات الشريعة وما يعود إلى الأعمال .. والإيمان يعنى هنا: العقيدة ممثلة فى الأصول التى يقوم عليها الدين .. وهذه الأصول تعنى:

أولا: الإيمان بالله رب العالمين، الذى لا اله إلا هو الواحد المعبود الذى لا شريك له، خالق كل ما فى الوجود..

ثانيا: الإيمان بالغيب: اليوم الأخر، والبعث، والجزاء، والجنة، والنار، والثواب، والعقاب، والملائكة ..

ثالثا: الإيمان بالنبيين، والمرسلين، وتصديقهم، والأخذ بتعاليمهم وإرشاداتهم، والعمل بما جاء عليهم من وحى الله. تلك هى أصول الإيمان التى حملها كل نبى ..

وقد جمعت هذه الأصول..آيات من القرآن الكريم، فى صدر سورة البقرة.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٤].

يؤمنون بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وجنته، وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت، والبعث ..

ويقيمون الصلاة بفروضها، وإتمام الركوع، والسجود، والتلاوة، والخشوع والإقبال عليها..

وكثيراً ما يقرن الله تعالى الصلاة والإنفاق من الأموال .. فإن الصلاة والابتهال إليه، ودعائه، والتوكل عليه، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم[1].

وقال تعالى: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ

---

(١) تفسير ابن كثير.. الجزء الأول . ص ٤١-٤٣. بتصرف .

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

الآية كما ترى مشتملة على خمسة عشر خصلة .. وترجع إلى ثلاثة أقسام:

فالخمسة الأولى منها تتعلق بالكمالات الإنسانية التي هي من قبيل صحة الاعتقاد..

وآخرها قوله: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وافتتحها بالإيمان، واليوم الأخر، لأنها إشارة إلى المبدأ والمعاد ..

والستة التي بعدها .. تتعلق بالكمالات النفسية، التي هي من قبيل حسن معاشرة العباد ..

وأولها: «وآتى المال»، وآخرها: «وفى الرقاب»..

والأربعة الأخيرة: .. تتعلق بالكمالات الإنسانية التي هي من قبيل تهذيب النفس .. وأولها: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وآخرها: «﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ﴾» .. ولعمرى من عمل بهذه الآية، فقد استكمل الإيمان، ونال أقصى مراتب الإيقان»[1].

فالإسلام في جانبه الإيماني العقائدى .. أكد هذه الأسس، التي أكدها كل نبي ولكنه في الجانب الذى يستتبع الشريعة .. جانب الالتزام والعمل كان الإسلام الفصل الأخير في تكامل التشريعات .. .

وهذا الطابع الشمولى الملتقى في أسس العقيدة، والمتكامل في التشريع... هو الذى جعل من الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر .. ولعل هذا هو السر الذى جعل من الإسلام كلمة تختص بالدين الذى جاء به رسول الإنسانية محمد عليه الصلاة والسلام ..

(١) تفسير الألوسي. الجزء الأول ص ٣٣٩ : ٣٦٠ .

وكلمة الإسلام وفى الإطار اللفظى .. تعنى التسليم والخضوع. وفى مفهوم الدين يراد منها: التسليم والخضوع لله وحده ..

وبهذا المعنى أطلقت على كل من آمن بالله، وسلم لأمر الله .. فى اتباع كل نبى وكل من يدين لله من الأديان السماوية. هم مسلمون بهذا المعنى .. والقرآن الكريم.. اعتبر كل من آمن بالله تعالى، والتزم بطاعة أنبيائه مسلما .. سواء كان تابعا لإبراهيم، أو موسى، أو عيسى، أو محمدا، صلوات الله وسلامه عليهم ..

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وصى بهذه الملة. وهى الإسلام لله، أو يعود الضمير على الكلمة وهى قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] لحرصهم عليها، ومحبتهم لها[1].

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [يوسف :١٠١].

وقال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

فلم يكن الإسلام مقتصرا على فئة دون فئة من المؤمنين .. فكل مسلم بحكم إيمانه وتسليمه لأمر الله .. هو من المؤمنين ..

فالإسلام فى هذا الإطار، يتسع ليشمل كل من وضع قدمه وسار فى مسيرة الإيمان ولكن الإسلام فى ظل رسالة محمد عليه الصلاة والسلام.. أصبح مقتصرا على تلك الرسالة وحدها ..

---

(١) تفسير ابن كثير . الجزء الأول ص ١٨٥.

والآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩] تعنى مجموعة المبادئ الإسلامية، وتعاليم الإسلام .. فالإسلام مر بمراحل كبيرة عبر أنبياء الله ورسله.. إلى أن انتهى إلى المرحلة المتكاملة فى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام التى جاءت إلى الإنسانية كلها ..

إذن رسالة الإسلام .. هى الإسلام الشامل للإنسانية فى وحدة إيمانها بالله قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

ولهذا كان الإسلام .. يشتمل على امتداد زمانى فى الفكر الدينى، ويعرض لقضية البشرية، من نشأتها إلى غايتها .. ويشتمل على شمول موضوعى يغطى مجالات الحياة جميعها. سياسية وفكرية واقتصادية واجتماعية وتربوية .. ويشتمل أيضاً على شمول يضم الأديان كلها ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها والانخراط فى سلك الذين أسلموا لله والمؤمن بنص القرآن مطالب بتصديق الأنبياء جميعا ..

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولهذا كله .. كانت الدعوة الإسلامية شاملة لكل أبناء الإنسانية .. تعمل لصالح المجتمعات الإنسانية كلها..

* * *

حقوق الحيوان فى الإسلام

نشرت الأهرام فى ٢٦/ ١٠/١٩٧٨ م نقلاً عن وكالة رويتر الإعلان العالمى لحقوق الحيوان جاء فيه: «بمناسبة اليوم العالمى لحقوق الحيوان صدر فى باريس، إعلان عالمى لحقوق الحيوان: يضمن للحيوان الحماية من أى اعتداء أو إزعاج، بشكل منظم وحسب قواعد واعتبارات معروفة».

وهذا الإعلان ستقوم مكاتب اليونسكو فى أنحاء العالم بتوزيعه فى الدول التى تتواجد بها وقد جرت قراءته فى باريس أمام رؤساء جمعيات الرفق بالحيوان الذين وصلوا كممثلين لجمعياتهم لعدد كبير من الدول.

واهتمت بعض الصحف الفرنسية بمناسبة صدور هذا الإعلان بنشر حادثة وقعت فى نفس الوقت فى باريس تعكس بعضاً مما يتعرض له الحيوان من اعتداء فقد أصدرت إحدى المحاكم حكما على سيدة تأوى ١٥ قطة بغرامة قدرها ٦٠٠ فرنك لأنها ضربت قطة تملكها جارتها حتى الموت.

واعتبرت الصحف هذا الإعلان العالمى لحقوق الحيوان بمثابة درع يحول دون تعرض الحيوانات لمثل هذه الحوادث.

إذا كان هذا الإعلان العالمى لحقوق الحيوان قد وصلت إليه الحضارة الحديثة فى القرن العشرين.

فإن تاريخ الحضارة الإسلامية .. حافل بالصفحات المشرقة، التى تؤكد أن هذه الحضارة المتفتحة، على الكون قد قدمت للفكر الإنسانى، ما يرقى به فى كل جانب من جوانب نشاطه ..

والإسلام فيما أوصى به من تعاليم وآداب. قد استهدف إنسانية الإنسان. وتنمية جانب الحياة الإنسانية فيه. من الإدراك والوجدان والإرادة فى العلم. وجانب الواجدان ليس هو العاطفة وحدها.. ولكنه التفاعل مع النفس والإنسان فى المجتمع، ومجال الحياة كلها.. إنه فى الحقيقة إدراك الجمال والتعاطف، وجمال السلوك، وجمال القول، وجمال الصنع، وجمال الإنسانية، وجمال العلاقات، وجمال الطبيعة.

والمحسن فى نظر الإسلام، هو صاحب الوجدان الرفيع الذى يبعث على الارتياح وعلى السرور، كى يستريح الإنسان مع نفسه، ويسر بوجود غيره معه.

والمؤمن الصادق هو الذى يشعر بإنسانيته، ويدرك مستواه، ثم يرى هذا المستوى فى أن يكون ذا إحسان ووجدان، وعاطفة ..

والإسلام يطلب من المسلمين أن يفعلوا الخير دائماً وأبداً. وهذا هو شأن الإسلام، رأفة ورحمة بالإنسان ورفق بالحيوان، لأن الإنسان والحيوان كلاهما يتألم بالجوع والعطش، وينفعل بشتى العواطف والأحاسيس، ولهذا كان الإنسان مأمورا بالانتفاع بالحيوان والطير فى حدود لا تؤذيه، ولا تحول بينه وبين ما يشتهيه من طعام وشراب.

فإذا كانت الحضارة الحديثة، وصلت فى القرن العشرين، إلى ما يعرف بجمعيات الرفق بالحيوان، فإن الإسلام سبق الحضارة الحديثة، بأربعة عشر قرنًا من الزمان ..

يقول الكاتب عبد الرحمن عزام فى «أبرز صفات النبى محمد ﷺ».

فلم يكن رسول الله ﷺ ليقصر رحمته، وبره على الناطقين من بنى الإنسان، فإن هذه الرحمة ملكت مشاعره، وحفزته لكفاح موفق، فى سبيل الرفق بالحيوان، فكم كان للعرب من عادات منبوذة أنكرها أزلها أنهم كانوا يقتطعون من حيواناتهم، وهى حية فيشوون ويطعمون فحرم ذلك، وكان العرب يتخذون من دوابهم أهدافا للرماية. فنهى عن ذلك».

وفى السنة المطهرة، أن رسول الله ﷺ، دخل حائطا لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل. فلما رأى رسول الله ﷺ حن وذرفت عيناه فأتاه رسول الله ﷺ فمسح عليه، فهدأ وسكت .. فقال: «من صاحب هذا الجمل»؟ فقال فتى من الأنصار: هو لى يا رسول الله، فقال: «أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها، فإنه شكا لى أنك تجيعه وتدئبه»..

ويرى العلماء الباحثون: أن هذا الحديث يوحى بمعان شريفة، ذات دلالات عميقة.

أولا: أن رسول الله ﷺ كان عظيم الرفق، رقيق القلب، حتى أنه استجاب لحنين الجمل، ورحم دموعه التى سالت، حين رآه، وذهب إليه مبديًا له عاطفته، ماسحًا على رقبته وظهره، وكأنه يواسيه..

ثانيا: أن مظهره ﷺ، كان مظهر الإنسان الهادئ، الطلق المحيا وهذا أمر يأنس به الحيوان كما يأنس به الإنسان، وله شواهد كثيرة، فيما نراه، من تبادل المحبة بين إنسان وحيوان. كأنما من جنس واحد. ولذلك أنس به الجمل، وحن إليه، وذرفت عيناه رمزاً لشكواه ..»

ثالثا: إن رسول الله ﷺ، قد فهم عن هذا الحيوان ما أراده بطريق الفراسة والنظر فى حاله وجسمه كأنه رآه مع حنينه وبكائه هزيلا ضعيفا فأدرك أنه متعب مجوع، وأن هذا إنما كان نتيجة لعدم تقوى صاحبه فى شأنه. ولذلك سأل عن صاحبه، وقال له ما قال..

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه، إن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً، فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له»، قالوا: يا رسول الله، وأن لنا فى البهائم أجرًا؟. قال: «فى كل كبد رطبة أجر».

وقال عليه الصلاة والسلام: «عذبت امرأة فى هرة حبستها، لا هى أطعمتها وسقتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض».

وهكذا يقرر رسول الله ﷺ، أن إحسان رجل إلى كلب انتهى بهذا الرجل، إلى أن رحمه الله وغفر له ذنوبه، فصار من أهل الجنة. وكل مؤمن فى نظر الإسلام، مطالب بأن يكون ذا وجدان على هذا النحو، ومن الوجدان الرفيع يتكون السلوك الرفيع وآدابه وما يستهدفه من معان ومثل وقيم عليا ..

ويقرر الرسول أيضا: أن إساءة امرأة إلى هرة، انتهت بهذه المرأة إلى غضب الله عليها، ودخولها النار ..

أمثال حية، جاءت من الواقع الذى يحس ويرى، يضربها محمد رسول الله ﷺ، لقوم ما كانوا يظنون فى الرفق بالحيوان أجراً، وقد كان لهذه الأمثال والتوجهات أكبر الأثر فى نفوس المسلمين، ومن تأدب بأدبهم من الشرق والغرب ويذكر أن عائشة رضى الله عنها، قست على بعير ركبته، فقال ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله».

وفى سنن أبى داود من حديث عامر، قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل عليه كساء وفى يده شىء، قد لف عليه طرف كسائه فقال يا رسول الله أنى لما رأيتك أقبلت فمررت بغيضة شجر، فسمع فيها أصوات فراخ طائر، فأخذتهن فوضعتهن فى كسائى، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسى. فكشفت لها عنهن. فوقعت عليهن فلففتها

معهن. وها هن فيه معى قال ﷺ: «ضعهن عنك» فوضعتهن وأبت أمهن إلا لزومها. قال النبى ﷺ لأصحابه: «أتتعجبون لرحمة أم الفراخ بفراخها»؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال «فوالذى بعثنى نبيا. لله أرحم بعباده من أم هؤلاء الأفراخ بفراخها، ارجع بهن حتى تضعهن حيث أخذتهن» فرجع بهن وأمهن ترفرف عليهن. وهذا الحديث فوق دلالته على رقة قلب الرسول، وقوة رحمته يدل على أمور .. ..

منها: أن الرسول وأصحابه ظلوا يتأملون أم الفراخ، وهى تلزم أفراخها وتأبى أن تفارقهن ولا ترضى أن تنجو بنفسها دونهن. فعرفوا جميعا إن ذلك راجع إلى ما أودع الله فى قلبها، من الرحمة لأفراخها. ورأوا فضل الله فى ذلك، وبديع صنعه، وعجيب سره، وهذا شأن المؤمنين يتدبرون فى كل ما يمر بهم.

ومنها: أن رسول الله ﷺ، قد انتهز الفرصة فى براعة عظيمة وسرعة خاطر، فذكر أصحابه بمعنى من شأنه أن يبعث فى قلوبهم الاستبشار والتفاؤل، والحب لله عز وجل. وذلك حين ذكر لهم - بعد أن عرف تعجبهم من رحمة أم الفراخ - إن الله أرحم بعباده منها بأفراخها - وهذا مثل للداعية وصاحب المبدأ، يلتمس له الفرصة أينما أمكنت. وذلك خير له من خطبة يحبرها ورسالة يحررها..

والرحمة رقة تقتضى الإحسان وقد تستعمل تارة فى الرقة المجردة. وتارة فى الإحسان المجرد عن الرقة، نحو: «رحم الله فلانا» وإذا وصف رب العزة بالرحمة، فليس يراد بهذا الوصف إلا الإحسان المجرد ... وعلى هذا روى إن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الناس رقة وتعطف ..

وعن ابن مسعود رضى الله عنه. قال: كنا عند النبى ﷺ فدخل رجل فأخرج بيض حمرة - وهى ضرب من الطيور أحمر اللون - فجاءت الحمرة ترف على رأس الرسول ﷺ، فقال الرسول ﷺ، لأصحابه: آيكم

فجع هذه ؟ فقال رجل: أنا يـا رسـول الله أخـذت بيضـها. وفـى روايـة أخذت فرخها. فقال ﷺ: «رده رده رحمة لها».

وقال عبد الرحمن بن عبد الله: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، فرأينـا حمرة، معها فرخان لها، فأخذناهما فجاءت الحمرة تعـرض «أى ترفـرف» فلما جاء الرسول ﷺ، قال: من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها..

فـأى توجيـه، وأى تـهذيب، وأى دعـوة إلى الرقــة والرحمــة بالطــير والحيوان أقوى مما نفهمه من هذه العلاقات المضيئة التى أرســى قواعدهـا رسول الله ﷺ .. لقد طبـق المسـلمون كـل كلمـة سمعوهـا مـن الرسـول الأمين، وكانت توجيهات الرسول، الرائد الكبير للأفهام والعقول. وهذا أبو بكر الصديق خليفة المسلمين، يوصى أمـير أحـد الجيـوش الإسـلامية، فيقول: «ولا تقتل هرما ولا امرأة، ولا وليدا ولا تعقرن شـاة، ولا بعـيرا، إلا ما أكلت، ولا تحرقن نخلا، ولا تخربن عامراً»..

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه، يرى فى الطريق جملا، يحمـل فـوق طاقته. فيضرب الجمال بدرته، ويقول: «حملت جملك ما لا يطيق»..

هذه هى حضارة الإسلام فى الرفق بالحيوان والطير، جاء بها الإسـلام منذ أربعة عشر قرنا، ليعلم الإنسانية أدب الرحمة ..

وإذا كان هذا فيما يختص بالحيوان والطير وكل شىء فـإن مـا يختـص بالإنسان يعد قيمة اجتماعية كبرى. تحتاج إلى طرفين: رحيـم ومرحـوم. والصلة بينهما هى الرحمة .. فالرحمة هـى العملـة التـى يجـب أن يتداولهـا الناس العقلاء. ويمكن أن تترجم هذه العملة المعنوية إلى لغة محسوســة، أو ما شئت من ألوان النعم التى يقوم عليها العمران والاجتماع والرقى.

ومن هذا المنطلق الإسلامى، كانت الرحمة قيمة عليا، تدل على صدق الإخلاص، وسلامة الضمير، وقوة الوجدان، والإحساس بالجمال.

* * *

الأخلاق والسلوك

الأخلاق الإسلامية علـى رأس القيـم الرفيعـة .. وهـى محـور أساسـى ترتكز عليه إنسانية الإنسان .. وهناك قيـم كثيرة فـى الإسـلام، جـاءت للحفاظ علـى المسـلم، وحرصًا علـى إرادتـه وشـخصيته .. إلا أن قيمـة الأخلاق تفضل على غيرها.

والأخلاق جمع خلق .. وقد جاء فى القرآن الكريم، قولـه تعـالى فـى سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وجرى ذلك كثـيرا فى اللسان العربى قال سالم بن وابصة:

يا أيها المتحلى غير شيمتـــه إن التخلق يأتى دونه الخلـق

وتطلق الأخلاق لغة: على الطبع والسـجية والعـادة والمروءة والديـن. وإذا كانت الكتب اللغوية تطلق الخلق على الطبع، وعلـى السـجية فـهل هناك فرق بين المدلولين، أم هما من الألفـاظ المترادفـة ؟ يـرى كثـير مـن الباحثين اللغويين أن هناك فرقا بينهما. وهو أن الطبع يطلـق علـى الخلـق الفطرى فالطبع، «بسكون الباء» هو: الجبلة التى خلق الإنسـان عليـها .. والسجية تطلق على الخلق الفطرى والخلق المكتسب إذا أصبح عادة .. . ولعل قول حسان بن ثابت مما يؤيد ذلك:

سجيـة تلـك فيهـم غيـر محدثـة إن الخلائق فاعلـم شرهـا البـدع

والتخلق: تكلف إظهار ما ليس فى الفطرة. وفى حديث عمـر رضـى الله عنه: «من تخلق للناس بما يعلـم الله أنـه ليـس مـن نفسـه شـانه الله» ..

وكلمة «خلق» بضم الخاء واللام، وردت فى القرآن الكريم مرتين: الأولى فى سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

والثانية فى سورة الشعراء: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧].

الأولى جاءت فى مقام المدح. والثانية فى وصف ما درج عليه الأولون .. والأولى جاءت معيارا لما ينبغى أن يكون .. والثانية أتت وصفا لما هو كائن. أما ما ينبغى أن يكون فقد جاء للمسلمين من الله سبحان وتعالى، لا من أحد من الناس، لا من الشرق ولا من الغرب، ولا من اليمين ولا من الوسط، ولا من اليسار ولا من أى فكر ابتدعه البشر وما جاء من عند الله فقد كان ولا يزال كافيا وتاما، نزل به الروح الأمين على محمد ﷺ وأمر رب العزة أن يكون الرسول هو المطبق العملى لآيات القرآن. وذلك لأنه القدوة الحسنة للمسلمين قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨].

يقول ابن عباس: يعنى إذا جمعناه وأثبتناه فى صدرك يا محمد فاعمل به .. فكان سلوك النبى ﷺ فى الحياة الدنيا، تفسيراً عملياً للقرآن الكريم، وحين سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق الرسول ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن» يقول الله سبحانه وتعالى، موجهاً ومنبهاً، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وجاء فى كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردى: أن النبى ﷺ روى عنه انه قال: «إن الله تعالى اختار لكم الإسلام دينا فأكرموه بحسن الخلق والسخاء، فانه لا يكمل إلا بها» .. وقال عليه الصلاة والسلام: «أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً الموطئون أكتافا الذين يألفون ويؤلفون»..

والأخلاق فى الإسلام عمل يعمل لا كلام يقال، عمل مبعثه القلب لا كلام مكانه اللسان .. وهى أيضاً سلوك يهدى إلى طريق الحق ..

قال بعض الحكماء: الحسن الخلق من نفسه فى راحة، والناس منه فى سلامة.. والسيئ الخلق. الناس منه فى بلاء، وهو من نفسه فى عناء، فإذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مصافون، وقل معادون، فسهلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب ..

قال العربى:

إذا لم تتسع أخلاق قوم تضيق بهم فسيحات البـــلاد

إذا ما المرء لم يخلق لبيبا فليس اللب عن قدم الولاد

وحسن الخلق: إن يكون سهل العريكة، لين الجانب، طلق الوجه قليل النفور، طيب الكلمة، حلو اللسان، و لم تقف الأخلاق فى الإسلام عند هذا الحد كما يظن البعض بل نظمت علاقة الإنسان بربه تبارك وتعالى.ونظمت علاقة الإنسان بنفسه ونظمت علاقة الإنسان بالكون وعلاقة الإنسان بالإنسان، خذ مثلا من تنظيم علاقة الإنسان بربه.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨، ٧٩].

واقرأ فى علاقة الإنسان بنفسه قول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

واقرأ فى علاقة الإنسان بالكون قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

والأمثلة عن كل علاقة نظمتها الأخلاق فـى الإسـلام كثيرة .. وقـد فاضت بها آيات القرآن الكريم وهى ميسرة لمن أراد أن ينهل.

والأخـلاق فـى القـرآن الكريـم تـهيمن علـى جميـع وجــوه النشــاط الإنسانى فى الحياة ليتمكن الإنسان مـن الوصـول بإنسـانيته إلى خـير مـا قدر. وخذ من الأخلاق فى القرآن: أدب الحديث .. تجد أن القرآن يأمر فى هذا الباب، حتى بانتقاء الألفاظ الرقيقة ..

قــال تعــالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٥].

وقــال تعــالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وقال تعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨].

وجملة ما يراد أن يقال إن الأخلاق التى جاء بها القرآن شملـت الحيـاة كلـها فـأمرت بالتعـاون والمـودة والعفـة والرحمـة والإحســان والصــدق والإخـلاص والاسـتقامة والنظافـة والصـلاح والإخـاء، والعفــو والصــبر والثبات والشجاعة وحسن الضيافة والتضامن والتكافل والطهر والصفــح والعفو والحب والتسامح والسلام .. ولم يكتف القرآن الكريم بــهذا بـل تأكيدا لضبط السلوك وأخلاقيات المسلم .. نهى عن الاعتداء والعدوان، والبـهتان والظلـم والبخـل والغضـب واللمـز والحسـد والنفـاق والخـداع والإسـراف، والغـش وقتـل النفـس بغـير حـق والكـذب ولغـو الحديــث وشهادة الزور والخلاعة والميوعة والابتذال والارتخاص والخنفسة والعهارة

والنميمة، والغيبة والخيانة والسرقة والخصومة والسخرية والتنابز والتدابر، والتباغض مما لو فصلته لوجدته كله فى القرآن الكريم..

فالأخلاق الإسلامية جاءت لإعلاء كلمة الحق وإقامة ميزان العدل فى الخلق.. ولا يمكن لأمة أن تحيا بدون أخلاق .. ولا قيمة للعلم، ولا حضارة بلا أخلاق ولا شك أن حضارة الغرب الصليبى، والشرق الشيوعى، قد أفلست رغم التقدم العلمى الهائل الذى حصلت عليه من تكنولوجيا العصر .. فقد ازدادت تلك المجتمعات ضلالا. وانتشرت فى نوادى العرى والعربدة والفسق والدعارة والضياع .. وتكاثرت الجرائم بشكل بالغ، وزاد عدد الأطفال غير الشرعيين وضاعت العقول بين الطاس والكاس .. وفقد الناس كل إحساس بالاستقرار والأمن .. ولم يعد هناك طعم للسعادة .. وصدق الشاعر العربى فى قوله:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فالحضارة العلمية بدون أخلاق، قد تتدهور وتنتهى .. وكم من الحضارات سادت ثم بادت بسبب الانتهاك العملى لحدود ما شرع الله وقد حدثنا القرآن الكريم عن كثير من هذه الظواهر .. ومن هنا كان علينا إن نحافظ على الأخلاق الإسلامية التى جاء بها القران الكريم، لنصل بالحضارة الإسلامية فى يقظتها الواعية، إلى خير الإنسانية. ولا يصح أبدا أن نمسخ أنفسنا هذا المسخ المشين فنطيل شعر الرؤوس أو نعلق السلاسل فى الرقاب، أو نلهث وراء الجنس لهث الكلاب .. ولا يصح لمسلم عاقل أن يجرى وراء التقليد الأعمى «لموضات» العصر .. وكل ما هب ودب..

* * *

النصيحة والتوجيه

إن الأخلاق التى تدفع إلى الرقى والنجاح دفعا وتؤدى إلى الفوز والفلاح حتما، هى القوى النفسية التى يعبر عنها علماء النفس .. بالملكات المستقرة فى النفوس، فهى التى تطبع الإنسان فى آية مسألة من مسائل الحياة بطابعها، فمن كانت عنده ملكة الصدق يصدق دائما، ومن كانت عنده ملكة النصيحة لا يتخلف عن بذلها، ومن كانت عنده ملكة الشجاعة لا يجبن أبداً .. وهذه الملكات تكتسب بالتربية والمران والإعداد، وهذا الميدان هو الذى يتفاضل الناس فيه ويرتفع بعضهم على بعض درجات ..

والمجتمع الإسلامى الواسع أحوج ما يكون إلى أخلاق فاضلة تهذب سلوك الأفراد والجماعات وتقوى الروابط، والائتلاف الذى قد ينشأ بين الأفراد والجماعات، ولقد كان من فضل الله على الأمة الإسلامية، أن كفل لها أمور الخير، ويسر لها الوحدة الكاملة، والرابطة القوية والتجمع الهائل .. وذلك بما أرسل لها من رسول كريم، هو محمد عليه الصلاة والسلام الذى اختصه الله بالرحمة الشاملة .. وبما أعطاه الله من كتاب كريم هو القرآن الكريم .. وبما كلفه الله من عقيدة تلزم المسلم ببذل الخير فى صدق وإخلاص حتى تتكون ثقة الأفراد بعضهم مع بعض على أسس من الود والصفاء والإخاء والتعاون والتآزر، ليقوم حال المجتمع الإسلامى، ويتجه إلى البناء، وتثبيت دعائم الحضارة والأمن وتوطيد أركان الإخاء والدعوة الإسلامية فى ذاتها: دعوة من شأنها تقوية الصلة

بين الناس ورفع لواء السلام بين المسلمين، وبين المسلمين والإنسانية وبعث الألفة والانسجام، لذا وضح الإسلام فى دعوته وإرشاداته، وتوجيهاته المحافظة على النصيحة والتناصح، ليظل المجتمع الإسلامى قويا .. و ها هو القرآن الكريم يقرر بصفة قاطعة حاسمة أن بين المؤمنين أخوة دائمة لا تنقطع ما داموا مؤمنين .. . قال تعالى فى سورة الحجرات: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠].

قال القرطبى فى كتابه «الجامع لأحكام القرآن»: «أى أخوة فى الدين والحرمة لا فى النسب ولهذا قيل أخوة الدين أثبت من أخوة النسب. فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب» وفى الحديث المتفق عليه .. جاء فى رياض الصالحين أن رسول الله ﷺ قال: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وروى ابن كثير وقال: تفرد به أحمد ولا بأس بإسناده قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن من أهل الأيمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المؤمن لأهل الأيمان كما يألم الجسد لما فى الرأس».

والمسلمون فى ظل الأيمان تربطهم وحدة هائلة: وحدة المفاهيم الأساسية. والاعتقادية فى الحياة الدنيا، وفى الحياة الآخرة، ووحدة فى المثل الأخلاقية، ووحدة فى القيم والمقاييس الخلقية .. والإسلام لم يقف بالمسلمين عند هذا الحد، بل دعا إلى مفاهيم وأخلاق من شأنها أن تزيد غراس الوحدة الإسلامية، عطاء ونماء وقوة. وانطلاقاً من المفاهيم الإسلامية التى دعا إليها الإسلام الحنيف جعل الإسلام العصبيات بأنواعها. سواء كانت إقليمية، أو قومية، أو قبليه أو عرفية أو نزعة سياسية، جعلها فسوقاً، وخروجاً عن أدب العقيدة، ويقول أحد علماء الفكر الإسلامى: «إن رابطة العقيدة فى الإسلام – وهى رابطة فى المبادئ والمثل العليا – هى أعلى وأقوى من رابطة الدم والنسب

والمساكنة فى الوطن، والمشاركة فى القومية. وهذا الأساس هو المنطق الوحيد للخروج من قوقعة الأنانيات الفردية والقبلية والقومية إلى صعيد اللقاء الإنسانى على أساس مبادئ الحق والعدل والخير. وفى هذا الإطار التربوى النفسى ذاته عالج الإسلام النفس الإنسانية، إعدادًا لها لتحقيق التعارف والتعاون فعالج آفاتها وأمراضها الحائلة دون التعاون، كالحسد والحقد والغل، التى تثيرها دوافع النفعية للذات الفردية أو القبلية أو القومية، وتزيلها دوافع إرضاء الله، والرغبة فى حسن ثوابه»..

والتضحية فى الإسلام خلق إسلامى رائع، وأسلوب تربوى مفيد، ومفهوم من المفاهيم الإسلامية. والنصيحة أم الفضائل الإنسانية ربما لم يخل منها دين من الأديان السماوية. وقد ذكر القرآن الكريم أن الرسل قد نصحوا أقوامهم، جاء في شأن نوح عليه السلام مع قومه. قوله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

وقال تعالى فى سورة هود: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤].

وجاء في سورة الأعراف شأن هود مع قوم: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

وفى شأن صالح مع قومه جاء قوله تعالى فى سورة الأعراف أيضاً: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وفي قصة شعيب مع قوله جاء قومه تعالى فى سورة الأعراف: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وليس هناك أضر على الأفراد والجماعات، من تركهم فى تصرفاتهم الخاطئة دون تقديم النصح لهم .. لأن ذلك يؤدى إلى الاستمرار فى الخطأ، والوقوع فى الشر: لذا أوجب الإسلام النصيحة كحق من حقوق المسلم على المسلم .. جاء فى كتاب «دليل الفالحين شرح رياض الصالحين» أن النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الخير للمنصوح له. وهى مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا خاطه.. شبه فعل الناصح فيما يتحراه للمنصوح له، بسد الخياطة خلل الثوب وإصلاحه، وقيل مأخوذة من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع، شبه تخليص القول من الغش بتخليص العسل من الخلط.. روى مسلم والبخارى، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه. فإذا دعاك فأجبه. فإذا استنصحك فانصح له. فإذا عطس فحمد الله فشمته فإذا مرض فعده .. فإذا مات فاتبعه». ومن هذا المنطق الإسلامى، صارت التضحية أصل من أصول العلاقة فى كل مجال من مجالات المجتمع، ولم يجعل الإسلام حدا للتضحية، وصورة معينة، حيث ترك للمسلمين الوسائل التى تتحقق بها، وفق متطلبات الحياة، ومقتضيات الأعمال. فقد تكون قولية أو فعلية وقد تكون صراحة أو ضمناً .. وقد تكون جملة أو تفصيلا .. وقد تكون مباشرة أو غير مباشرة .. ويرى العلماء: أن النصيحة بين المسلمين لازمة على قدر الحاجة إذا علم الناصح: أنه يقبل نصحه، ويطاع أمره وأمن على نفسه المكروه.. فإذا تخشى أذى فهو فى سعة..

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يبايعون الرسول ﷺ على النصح والتناصح، وقد بايع رسول الله ﷺ جابر بن عبد الله الصحابى الجليل على النصح لكل مسلم جاء فى رياض الصالحين من حديث متفق عليه، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الذكاة والنصح لكل مسلم» وروى مسلم والبخارى عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «دعوا الناس يرزق الله

بعضهم من بعض فإذا استنصح أحدكم أخاه فلينصحه» وجاء فى كتاب الخراج لابن يوسف: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن، إخلاص العمل لله والنصيحة لولاة المسلمين ولزوم جماعتهم فان دعوتهم تحيط من ورائهم». وروى مسلم عن أبى رقية تميم بن أرس أتدارى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟.. قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم».. والنصيحة لمن يطلبها يلمسها عند أهلها، من أصحاب القلوب المؤمنة والعقول الراجحة، والضمائر الحية .. فليس كل الناس سواء وللنصيحة أغراضها سواء كانت من الناصح أو المنصوح، ولذا قيل: لا نستشر على مستبد، ولا على وغد ولا على معجب، ولا على متلون.

وقال أبو الحسن البصرى الماوردى: «اعلم أن من الحزم لكل ذى لب، أن لا يبرم أمرا، ولا يمضى عزما، إلا بشرة ذى الرأى الناصح، ومطالعة ذى العقل الراسخ .. فإن الله تعالى أمر بالمشورة، نبيه ﷺ مع ما تكمل به من إرشاده ووعد من تأييده فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فأمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون.

فإذا كان هذا هو أدب الإسلام للمسلمين فيما يطرأ بين الأفراد والجماعات من أمور اقتضى بذل النصيحة .. فإن كل ذلك جاء من أجل الحفاظ على وحدة المسلمين، وتكامل أخوتهم .. وأى تهذيب، وأى دعوة، وأى تربية، إلى الفضيلة والشرف أقوى من المفاهيم الإسلامية التى جاء بها الإسلام .. وأننا كأمة إسلامية لها تراثها الحضارى، وجغرافيتها المتميزة ومكانتها الهائلة، جدير بنا أن نعالج ما قد يحدث بالنصيحة والتناصح لنصل إلى خير ما قدر.

* * *

البر فى العقيدة والعمل

البر كلمة رائعة، من الكلمات الإسلامية العريقة المنبت، الأصيلة فى المدلول والمفهوم، وهى أغزر الكلمات الإسلامية مادة، وأدقها تصويراً لما يقع تحت فعل الخير، وتعبيراً عما يجول فى النفس، من خواطر ونيات طيبة ..

واستطاعت هذه الكلمة فى ظل عالمية الإسلام أن تتسع وترتفع حتى تصعد أرقى الاختلاجات، فليس هناك معنى من معانى الخير، ولا فكر من الأفكار الحسنة، ولا عاطفة من العواطف النبيلة، ولا عمد من السلوك الإسلامى إلا وله بكلمة «البر» اتصال وارتباط، ولم أقف فيما قرأت على مفهوم يقارب فى شموله وعمومه واتساعه مفهوم البر فى الإسلام ..

والبر فى الإسلام قيمة عليا من القيم الفاضلة، وأساس من أسس مكارم الأخلاق، وبعبارة أقرب وأوجز: والبر هو جماع الخير كله .. والبر بالنسبة للإنسان جماع كل فضيلة .. ويتسع المفهوم ليشمل المعانى النفسية والأخلاقية الموجهة وما ينشأ عنهما من أعمال صالحة طيبة يتقرب بها العبد إلى ربه.

وقد كان المسلمون يفهمون معنى البر على هذا الوجه، ويدركون أن كل عمل صالح أو نية طيبة أو خلق مرضى .. شعبة من شعب البر وقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وسأله عن البر والإثم فقال له رسول الله ﷺ «استفت قلبك.. البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب»... وفى آية واحدة من سورة البقرة، يضع الله سبحان وتعالى قواعد البر فى الإسلام وقواعد التصور الإيمانى .. وقواعد السلوك المنظم وقواعد

الأخلاق وقواعد الصحة والكماليات النفسية قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال الفيروز أبادى فى كتابه «بصائر ذوى التمييز فى ألطاف الكتاب العزيز»: وأصل الكلمة ومادتها أعنى (برر) موضوعة لخلاف البحر، وتصور منه التوسع فاشتق منه البر أى التوسع فى فعل الخير. وينسب ذلك تارة إلى الله تعالى فى نحو: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨] وإلى العبد تارة، فيقال: بر العبد ربه أى توسع فى طاعته، فمن الله تعالى الثواب، ومن العبد الطاعة. وذلك ضربان ضرب فى الاعتقاد، وضرب فى الأعمال. وقد اشتمل عليها قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ وعلى هذا روى أنه ﷺ سئل عن البر فتلا هذه الآية. فإن الآية متضمنة للاعتقاد، ولأعمال الفرائض، والنوافل، وبر الوالدين: التوسع فى الإحسان إليهما. ويستعمل البر فى الصدق لكونه بعض الخير. يقال: بر فى قوله وفى يمينه. وحج مبرور: مقبول. وجمع البار: أبرار وبررة، وخص الملائكة بالبررة من حيث أنه أبلغ من الأبرار. فانه جمع بر، والأبرار جمع بار، وبر أبلغ من بار، كما أن عدلا أبلغ من عادل..

وآية البر هذه أجمع الآيات فى تحديد معنى البر من النواحى الواقعية والعلمية والسياسية والاجتماعية، فهى ترشد فيما ترشد إلى أن «البر» لا يرتبط بشىء من المظاهر والصور والأشكال وإنما يرتبط بالحقائق وروح التكاليف..

لذلك يرى علماء الأمة الإسلامية إن هذه الآية اشتملت على جمل عظيمة وقواعد عميقة، وعقيدة مستقيمة ومن اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله والآية كما ترى مشتملة على خمسة عشر خصلة، وترجع إلى ثلاثة أقسام جامعة لكل أنواع البر..

فالخمسة الأولى منها تتعلق بالكمالات الإنسانية التي هي من قبيل صحة الاعتقاد وقد بينت الآية ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وماذا في تلك الصفات من قيم تجعل لها هذا الوزن في ميزان الله ؟ يقول شهيد الإسلام سيد قطب: «ما قيمة الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ؟ إن الإيمان بالله هو نقطة التحول في حياة البشرية من العبودية لشتى القوى، وشتى الأشياء، وشتى الاعتبارات إلى عبودية واحدة لله تتحرر بها النفس من كل عبودية وترتفع بها إلى مقام المساواة مع سائر النفوس، وفي الصف الواحد، أمام المعبود الواحد ثم ترتفع بها إلى فوق كل شئ وكل اعتبار .. وهو نقطة التحول كذلك من الفوضى إلى النظام ومن التيه إلى القصد ومن التفكك إلى وحدة الاتجاه .. فهذه البشرية دون إيمانها بالله الواحد، لا تعرف لها قصدا مستقيما، ولا غاية مطردة، ولا تعرف لها نقطة ارتكاز تتجمع حولها في جد، وفي مساواة كما يتجمع الوجود كله واضح النسب والارتباطات والأهداف والعلاقات .. والإيمان باليوم الآخر وهو الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء وبأن حياة الإنسان على هذه الأرض ليست سدًى ولا فوضى بغير ميزان وبأن الخير لا يعدم جزاءه ولو بدا انه في هذه الأرض لا يلقى الجزاء، والإيمان بالملائكة طرف من الإيمان بالغيب الذي هو مفترق الطرق بين إدراك الإنسان وإدراك الحيوان وتصور الإنسان لهذا الوجود وتصور الحيوان. الإنسان الذي يؤمن بما وراء الحس والحيوان المقيد بحسه لا يتعداه، والإيمان بالكتاب والنبيين هو الإيمان بالرسالات

جميعا والرسل أجمعين، وهو الإيمان بوحدة البشرية ووحدة ألهها ووحدة دينها ووحدة منهجها الإلهى ولهذا الشعور قيمة فى شعور المؤمن الوارث لتراث الرسل والرسالات..

فإذا انطلق المسلمون بهذه القيم الرفيعة لإحقاق الحق وإعلاء كلمة الله، وسيادة المنهج الإسلامى فتلك دعوتهم، ولا حياة للمسلمين بدون هذه الدعوة.. والعقيدة الإسلامية تعتبر أصلح العقائد ومنهجها التربوى الموجه للضمائر يعد أصلح المناهج. ومن هنا كان على المسلمين أن يواجهوا تحديات العصر أيًا كان نوعها وأيًا كانت أساليبها وأشكالها بالمنهج الإسلامى ..

والنوع الثانى من أقسام البر التى ترجع إليها الخمسة عشر من الخصال التى جاءت فى آية البر التى معنا يشمل ست خصال جاءت بعد الخمس الأولى منها، وهذه الست تتعلق بالكماليات النفسية التى هى من قبيل حسن معاشرة العباد، وهى قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذه الخصال الست تدخل فى البر فى العمل. والعمل هو مدد العقيدة، وفى نفس الوقت هو ثمرتها يحفظها وينميها ويدل عليها. «وقيمة المال» هى الانعتاق من ربكة الحرص والشح والضعف والأثرة انعتاف الروح من حب المال الذى يقبض الأيدى عن الإنفاق ويقبض النفوس عن الأريحية ويقبض الأرواح عن الانطلاق» فهى قيمة روحية يشير إليها ذلك النص على حب المال، وقيمة شعورية أن يبسط الإنسان يده وروحه فيما يحب من مال، لا فى الرخيص منه ولا الخبيث فيتحرر من عبودية المال. وهذه العبودية التى تستذل النفوس، وتنكس الرؤوس ويتحرر من الحرص والحرص يذل أعناق الرجال، وهى قيمة إنسانية كبرى فى حساب الإسلام الذى يحاول دائما تحرير الإنسان من وساوس

نفسه وحرصها وضعفها قبل أن يحاول تحريره من الخارج فى محيط الجماعة وارتباطاتها، يقينا منه بأن عبيد أنفسهم هم عبيد الناس وأن أحرار النفوس من الشهوات هم أحرار الرؤوس فى المجتمعات. ثم أنها بعد ذلك كله قيمة إنسانية فى محيط الجماعة»..

النوع الثالث يشمل الأربعة الأخيرة من الخصال التى جاءت فى آية وهى خصال تتعلق بالكماليات الإنسانية التى هى من قبيل تهذيب النفس. جاء فيها قوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فقد جاء بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مبدأين هامين من مبادئ البر فى الخلق.

المبدأ الأول: مبدأ القيام بالواجب وقد عبرت عنه آية فى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والعهد لفظ شامل يجمع ألوانا من الارتباطات والالتزامات لاغنى للنفس عنها ولا استقامة للحياة بدونها عهد بين الله والإنسان أو عهد بين الإنسان والإنسان. أو عهد بين الدولة والدولة. وعهود الله مع عباده كثيرة. منها العام ومنها الخاص. وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠].

وحظ الناس اليوم من هذا العهد هو ترابط المصلحين والدعاة على مبدأ الخير والصلاح والإصلاح والتربية والتوجيه. أما عهود الناس بعضهم مع بعض، فهى تتمثل فيما يحدث بينهم من عقود والتزامات مالية أو غير مالية.

أو فيما يحدث بين الأمة والأمة فى تحديد الحقوق والالتزامات وكلها يجب الوفاء بها بما لم تكن فى معصية الله ..

والوفاء بالعهد سمة الإسلام التى يحرص عليها ويكررها القرآن كثيراً وبعدها آية الإيمان، وآية الآدمية وآية الإحسان وهى ضرورة لإيجاد جو من الثقة والطمأنينة فى علاقات الأفراد وعلاقات الجماعات، وعلاقات الأمم والدول، تقوم ابتداء على الوفاء بالعهد مع الله، وبغير هذه السمة يعيش كل فرد مفزعا قلقا لا يركن إلى وعد ولا يطمئن إلى عهد، ولا يثق بإنسان. ولقد بلغ بالإنسان من الوفاء بالعهد لأصدقائه وخصومه على السواء، قمة لم تصعد إليها البشرية فى تاريخها كله، ولم تصل إليها إلا على حداء الإسلام وهدى الإسلام».

والمبدأ الثانى: مبدأ مقاومة الطوارئ والتغلب على عقبات الحياة، وقد عبرت عنه الآية بقولها: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والصبر عدة النجاح فى الحياة، والسبيل الوحيد للتغلب على جميع الصعاب.

إن الصبر فى الإسلام هو الرجاء فى الله والثقة بالله والاعتماد على الله، ولابد للأمة الإسلامية التى نيطت بها القوامة على البشرية والعدل فى الأرض. والتى هى خير أمة أخرجت للناس. لابد لها أن تهيئ نفسها لإصلاح البشرية، وتتجمل بالصبر، وقوة التحمل ..

وهكذا تبين آية البر فى سورة البقرة، أن الأمة الإسلامية هى أمة القيادة والتوجيه. وأن لها فى هذا العالم صدارة يجب ألا تفرط فيها. ومن هنا كان على المجتمعات الإسلامية أن تحافظ على خصال البر التى جاء بها الإسلام .. وهى تشمل البر فى العقيدة، والبر فى العمل، والبر فى الخلق.

* * *

الجامعة الإسلامية

إن الإسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها .. ثم هو دين البشرية قاطبة عبر الزمان والمكان .. يجمعها ولا يفرقها ويوحدها ولا يشتتها بعث الله به كل نبى، ودعا إليه كل رسول فمحاولة الخروج عليه أو التفلت منه بعد العلم به يعتبر جحودا ومعصية .. قال تعالى فى سورة آل عمران:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

ومن هنا كان على المسلم وهو يتلو هذه الآية، أن يتذكر أنها ما أنزلت إلا هداية وعبرة ليتقى الخلاف والاختلاف وليبعد عن المذاهب الوضيعة والأفكار.

والأمة الإسلامية بعالمية الرسالة والقرآن ورثت الدين الحق، وبهذا الميراث أصبحت خير أمة أخرجت للناس، ولهذه الخيرية التى خص الله بها أمة الإسلام، ينهانا رب العزة نهيا صريحاً قاطعاً عن التنازع والشقاق والتفرق بل وعن التشبه بالمتفرقين .. قال تعالى فى سورة آل عمران:

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فالله سبحانه وتعالى يأمر المسلمين - كل المسلمين - بالاعتصام والتمسك بحبل الله، الذى هو مناط الثقة وموضع اليقين .. وينهى المسلمين -كل المسلمين -عن التفرق والانفصال، لما فى التفرق من

زوال الشخصية الإسلامية .. فالنهى عن التفرق - أيا كان - جاء بعد الأمر بالاعتصام بكتاب الله والذى هو معقد العزة والقوة .. وبالعزة يعتز الحق، فيعلو فى الدنيا كلها، وبالقوة يحفظ كتاب الله وأهل القرآن من هجمات الواثبين، وكيد الكائدين .. قال تعالى فى سورة الأنفال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

جاء فى المنار «أن هذه الآية كالدليل على أنه يجب أن تكون وجهة الأمة الداعية، الآمرة، الناهية، واحدة، لأن الذين سبقوهم ما أفلحوا لعدم وحدتهم ورسول الإنسانية محمد عليه الصلاة والسلام، يحرص كل الحرص على سلامة الأمة الإسلامية وما يحفظ كيانها ووجودها ولهذا يوجه توجيهاته الرشيدة ليتحقق النهوض والقوة المطلوبة .. جاء فى كتاب كنز العمال، فيما رواه ابن عساكر عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اثنان خير من واحد، وثلاثة خير من اثنين، وأربعة خير من ثلاثة .. فعليكم بالجماعة فان يد الله مع الجماعة، ولم يجمع الله عز وجل أمتى إلا على هدى واعلموا إن كل شاطن هوى فى النار» فالجامعة الإسلامية قوة لا تضارعها قوة .. وصمام أمن، وسياج سلام، وتقدم وحضارة.

وروى الطبرانى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من عمل لله فى الجماعة فأصاب، قبل الله تعالى منه. وإن أخطأ غفر الله له، ومن يبتغ الفرقة فأصاب لم يتقبل الله منه، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار» .. . وهكذا تتضافر آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول الأمين، فى الحث على الجماعة الإسلامية .. وحرصا على الأمة التى أكرمها الله بالإسلام من التفرق، وخوفا عليها من المذاهب الهدامة لأن قانون الحياة

المطرد إن الاتحاد قوة هائلة، وهيبة رائعة وأن التفرق ولو سياسياً أو فكرياً أو مذهبيًا ضعف وهلاك وتلك سنة الله.. وإذا انتقلنا إلى صفحات التاريخ الإسلامى وجدنا انه كلما اتحد المسلمون وتجمعت صفوفهم وأفكارهم، كلما زادت قوتهم، وتهيب العدو بأسهم وخاف سلطانهم.. وكلما تفرقوا وتنازعوا، ازداد فشلهم وطمع الذئاب الحمر فيهم ..

وفى السنة الثالثة من هجرة الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه وقعت غزوة أحد بين المسلمين وبين المشركين وكان النصر فى بداية المعركة للمسلمين حتى إذا أوشكت أن تنتهى بنصر حاسم للمسلمين، وهزيمة ساحقة كاسحة للمشركين ظهرت فى صفوف المسلمين أمور. كان أبرزها انهم اختلفوا فماذا كانت النتيجة ؟ منى المسلمون بهزيمة كبيرة أفقدتهم سبعين بطلا من خيرة الرجال وقد يسأل أحد القراء .. لماذا يصاب المسلمون بكل هذا وهم مسلمون؟ والجواب المقنع الواضح الذى لا يحتاج إلى فذلكة أو لف أو دوران يجيء فى قوله تعالى فى سورة آل عمران.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]

فالتنازع فى الأمر، والاختلاف، كان أحد الأسباب الرئيسية فى هزيمة المسلمين فى معركة أحد .. ولكن القرآن الكريم يبين للمسلمين فى وضوح: أن ذلك لا يمكن أن يكون سببا للانصراف عن الدعوة الإسلامية بل يستمر المسلمون فى شحن قواهم وإعداد عدتهم .. قال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[آل عمران:١٣٩ - ١٤٢].

وفى نهاية القرن الخامس الهجرى، قام الأوروبيون بهجوم على الأمة الإسلامية فى أرض الشام وانتصر الأوروبيون فى هذا الهجوم، وانتزعوا الكثير من مدن الأمة الإسلامية، وأسسوا بها أربع إمارات صليبية فى: الرها، وأنطاكية، وبيت المقدس، وطرابلس. وعندما نبحث فى الأسباب التى جعلت الأوروبيين ينتصرون على المسلمين نجد أنها ..

أولا: انقسام الدولة الإسلامية عقب موت السلطان «ملكشاه».

ثانيا: تفكك وحدة الأمة الإسلامية وانصراف أفرادها إلى اللهو والشهوات.

ثالثا: اختفاء الزعامة الإسلامية المطلوبة، وظهور أصحاب الأغراض والأهواء .. . هذا فى الوقت الذى اتحدت فيه الصليبية لأول مرة. على حين كان المسلمون إذ ذاك منقسمين على أنفسهم، ولكن حدث أن بدأت روح الأمة الإسلامية تدب من جديد .. وقام الغيورون فى العالم الإسلامى ببث روح التعاون والجهاد فى سبيل الله، وسرعان ما اجتمعت النفوس المؤمنة على الجهاد.. وقاد حركة الجهاد القائد الإسلامى صلاح الدين الأيوبى، الذى جمع الجيوش الإسلامية فى وحدة متناسقة وأوقع الصليبيين بين قوات إسلامية من كل جانب .. وكانت هذه الوحدة الإسلامية هى السبب المباشر فى انتصار المسلمين بقيادة البطل صلاح الدين على الصليبين فى موقعة «حطين» سنة ١١٩٢ م .. والأمثلة من التاريخ الإسلامى كثيرة وكلها تشهد بانتصار المسلمين حين تتوحد صفوفهم، وتجتمع كلمتهم، ونحن نعرف أن المسلمين هزموا سنة

١٩٦٧م وأصيب فريق منهم بنكسة مدمرة نفسيا وماديا، وذلك أمام عصابات الصهيونية، وان أردت أن تفتش أخى القارئ عن أسباب الهزيمة وجدت أنها:

أولا: جاءت نتيجة حتمية للاستهتار بالقيم الإسلامية وكلمة الإسلام واحتقار العلم والعلماء من رجال الأزهر .. وأعرف أن مسئولاً كبيرًا عن مجلة إسلامية قال إذ ذاك الوقت للمحررين فى المجلة: «قللوا من كلمات الإسلام بقدر الإمكان».

ثانيا: عدم التخطيط المركز والقائم على الشورى بين المسئولين فى الأمة الإسلامية .. إذ انساقت القيادات الطائشة فى لهيب جحيم السرطان الماركسى المتسلط وظنت الرؤوس الجاهلة أن الحرب بالكلام والتشدق والتهديد ..

ثالثا: جاءت الهزيمة نتيجة للانتهاك الفعلى لحدود الله. فإعداد الجنود والقيادات لخوض المعركة يتطلب قوة وتربية عسكرية، وتقديم ما يحرض المؤمنين على القتال فى سبيل الله، وحب الاستشهاد. ولكن ماذا قدمت القيادة العسكرية لجنود المجتمع الإسلامى ؟.. قدمت لهم وهم فى قلب صحراء سيناء وربما على مرأى من عيون العدو، قدمت الماجنات والفنانات والمغنيات والراقصات والعاريات .. فأى خسارة أكبر من هذا؟.. عصيان لله وتمرغ فى الوحل وارتخاص وابتذال ..

وفى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ قام الجنود المسلمون بمفاجأة أفقدت صواب العدو .. وأذهلت تفكير الأصدقاء .. وذلك أن الجيش المصرى المسلم عبر وفى ظروف عصيبة وصعبة أعظم مانع طبيعى وهو قناة السويس .. وأكبر وأضخم مانع صناعى وهو خط بارليف .. وأثبت المسلمون أنهم أهل لتحمل المسئولية، وبهذا تحطمت أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر .. وإذا ذهبت تفتش عن أسباب

وعوامل النصر التى حظى بها المسلمون فى العاشر من رمضـــان وجـدت أنها:

أولا: إعداد الجنود إعدادا يتفق مع منطق الإسلام ولذا كـانت عبـارة «الله أكبر» نطق ومنطلق الجنود فى تقديهم وزحفهم المستمسك بالحق .. وقد شحن الجنـود بآيـات الجـهاد، والقتـال فـى سـبيل الله فكـان النصـر حليفهم.

ثانيا: الوحدة الإسلامية الرائعة والتى تجلـت فـى التشـاور والتخطيـط بـين القـادة المسـلمين، وتدخـل القيـادة السـعودية ومؤازرتـها للمعركـــة عسكريا وسياسيا وماديا.

ثالثا: نبذ شعارات التخريف، وإبعاد الملصقات الاشتراكية والماركسية من كل ميدان.

وإذا كـانت معركـة العاشـر مـن رمضـان انطلاقـة كـبرى فـى طريـق التصحيـح والتقويـم .. فـان الواجـب يحتـم علينـا أن نسـير فـى الطريـق الإسـلامى، لأنـه أسـلم طريـق .. . وظـروف العصـر سـواء فـى معركـة السلام أو فى القتال فى الميدان تملى على المسلمين أن يكونوا القـوة التـى تسوق إلى الانتصار. فمتى يـدرك المسـلمون قيمـة أنفسـهم فـى الحيـاة ؟ ومتـى تعـرف الأمـة الإسـلامية مسئوليتها ؟.. ومتـى يفـهم أبنـاء الأمـة أمجادهم التاريخية إن الأمة الإسلامية فى أشد الحاجة إلى جامعـة إسـلامية تعبر أصدق تعبير عن السلام .. وعن الجهاد، وليكن لهذه الجامعـة جيـش إسلامى كبير، يوزع على قواعد إسلامية ليكـون تحـت طلـب أى دولـة إسلامية .. وليس هذا بدعا فى لغة العصر فـالدول الصليبيـة لهـا جيـوش مشتركة فى قيادة واحدة هى «حلـف الأطلسـى» والـدول الشـيوعية لهـا جيوش شيوعية مشتركة فـى قيـادة واحـدة هـى «حلـف وارسـو» ونحـن المسلمين أولى الناس بقيام قيادة واحدة لجيش إسـلامى قـوى مؤمـن، بـل ربما كنا أحوج الناس إلى هذه الجامعة الإسلامية.

* * *

مفهوم القوة فى الإسلام

الصراع بين الأحياء من طبيعة الحياة وقوى الشر والإلحاد تعمل دون هوادة والمعركة مستمرة بين الخير والشر، والصراع قائم بين قوى الإيمان، وقوى الطغيان، والشر جامح والباطل مسلح.

من هنا حرص الإسلام على أن يكون المسلمون على استعداد لمواجهة الباطل وقوى الإلحاد والإضلال والطغيان. مهما تكن التضحيات فى النفس، والأهل، والمال، .. والمواجهة بين الحق والباطل ضرورة مؤكدة.. وقد أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

حتمية المواجهة تستدعى ضرورة الاستعداد .. وليس شرطا أن ينتظر المسلمون حتى يروا إمارات الشر، والعدوان .. وإنما على المسلمين أن يدركوا طبيعة الحياة من واقع الناس .. فيبذلوا قصارى إعداد القوة. وإلى هذا يوجه القرآن الكريم المؤمنين بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالاستعداد بما فى الطرق هو فريضة الجهاد فى الإسلام. والقرآن الكريم يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وأسبابها ..

ومن إعداد القوة .. التمسك بالعقيدة التى اشتمل عليها القرآن الكريم، وأرسى قواعدها وأصولها الرسول الأمين محمد صلوات الله وسلامه عليه .. والعقيدة الإسلامية، تبعث فى روح المؤمن، القوة الدافعة إلى كل خير، وتملأ القلب باليقين والثبات .. وفوق هذا فهى أعطف شئ على الإنسان وأحنى آس عليه، يعتصم بها الإنسان، ويستسهل بها صعوبات الحياة .. .

إنها عقيدة التوحيد والتنزيه تحمل للنفس الإنسانية، روحا من الإباء لايقدر على الإتيان بمثلها غيرها .. عقيدة تحبب فى الحياة السليمة، وتنشط للعمل، وتحرض على استصلاح المعيشة، وتبيح للإنسان مجال الفكر، وتفسح له ميدان النظر، وتفيض على النفوس روح الحرية .. وتثبت فى الأفئدة حرارة الشمم والحمية ..

الآية القرآنية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال ٦٠] تشتمل على قوة العقيدة، لأن الوسائل المادية وحدها، ليست هى التى تفصل فى المعارك الحربية وكثيرا ما تنفلت موازين أعصاب المحاربين .. فيولون هاربين ولا يوجد ما يثبت الأعصاب ويقويها كالعقيدة الإسلامية التى تصل القلوب بالله سبحانه وتعالى، وتصل قوة المجاهدين بالقوة الكبرى التى لا تغلب.

الله يأمر المؤمنين بالاستعداد لدفع العدوان وحفظ الأنفس والعقيدة والبلاد، والحق والفضيلة. ويكون ذلك بأمرين:

الأمر الأول: إعداد المستطاع من القوى ويختلف باختلاف الزمان والمكان.

والأمر الثاني: مرابطة الفرسان فى ثغور البلاد وحدودها، إذ هى مداخل الأعداء ومواضع مهاجمتهم للبلاد.

والحكمة فى هذا أن يكون للأمة الإسلامية جند دائم مستعد للدفاع عنها إذا فاجأها العدو ..

فالأعداء: أعداء الحق والعقيدة، إذا علموا استعداد البلاد الإسلامية، وتأهب المسلمين للجهاد .. خافوا وتهيبوا .. وإلى هذا يشير أبو تمام:

وأخافكم كى تغمدوا أسيافكم   أن الدم المغير يحرسه الدم

وهذا الخوف يفيد المسلمين من وجوه:

أولا: يجعل أعداء المسلمين لا يعينون عدوا آخر عليهم ..

ثانيا: يجعل الأعداء يؤدون الالتزامات المطلوبة من مراعاة وآداب.

ثالثا: ربما حض ذلك على دخول كثير فى الإسلام ..

وإعداد القوة فى الإسلام، والتى جاء الأمر بها، ليس المقصود بها إعداد قوة مماثلة لقوة الأعداء. لأن فريضة الجهاد فى الإسلام لا تنتظر حتى إعداد قوة مماثلة لقوة العدو .. لأن ذلك قد يطول، ولو انتظر المسلمون فى غزوة بدر الكبرى حتى تتكافأ قوتهم، وقوة عدوهم، ما قامت للإسلام والمؤمنين قائمة ..

إنما القلة المؤمنة بالله، والمعتزة بعقيدتها اعتزازا يفوق كل اعتبار ..

والآية القرآنية التى أمرت بإعداد القوة، فيها كلمة (ترهبون) وقد جاءت بصيغة الفعل المضارع، وتشير إلى الغرض من إعداد القوة .. وهو إلقاء الرهبة فى قلوب أعداء الله وأعداء المسلمين، المعلومين منهم للمسلمين، والمجهولين .. وكم للإسلام والمسلمين من أعداء ..

فالمذاهب الهدامة، والأفكار المستوردة والتبشير والصهيونية .. كلها تشكل حربا خطيرة ضد المسلمين ..

وهؤلاء لا شك ترهبهم قوة الإسلام فى نفوس المسلمين، وقوة المسلمين ولو لم تمتد إليهم ..

والآية الكريمة (وأعدوا ..) على اختصارها جمعت أنواع الإعداد للجيوش التى تتلاءم مع كل عصر وزمن .. كالإعداد المادى، والإدارى

والفنى، والمالى والتخطيط، والدراسة الموضوعية لمقتضيات الأحوال. ولقد فرض القرآن الكريم على الأمة الإسلامية الإعداد بكل ما تشمله كلمة إعداد من معنى، وأن تبذل الأمة فيه أقصى الجهود الصادقة .. ولم تغفل الآية الإعداد وقت السلم ووقت القتال، حتى تكون الجيوش الإسلامية، أشد فعالية، وقدرة قتالية ..

والقتال فى الإسلام مجرد من كل غاية أرضية، ومن كل دافع شخصى .. ليتمخض خالصا لله، لتحقيق كلمة الله، وإقامة العدل، ابتغاء رضوان الله.. فإعداد القوة المادية والمعنوية، أمر لا بد منه للأمة الإسلامية .. والقوة المعنوية فى الإسلام لها تأثيرها، وأثرها والجهاد له إحدى الحسنيين ..

ويهيئ القرآن الكريم نفوس المسلمين لهذا المعنى، فيورده بأسلوب التشويق حتى يكون شعار المؤمنين فى الحياة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠، ١٣].

فالإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله بمنزلة التجارة، يربح فيها المؤمنون رضاء الله، ونيل جنته، وذلك خير من أى تجارة أخرى .. وثمة خصلة أخرى يحبها المؤمنون فى الدنيا مع ثواب الآخرة، وهى النصر على الأعداء. وهكذا تضيف آيات سورة الصف إلى الفوز بالجنة ثمرات يحبها المؤمنون من وراء هذه التجارة مع الله، وهى النصر، والفتح فى الدنيا .. ذلك أن المجاهد حين يقاتل فيقتل أو يقتل .. فإنما هو يضع الحياة الحرة الكريمة ..

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وهذا يعنى أن أسلوب الجهاد ضرورة من ضرورات الحياة الكريمة وأى تقصير فى التهيؤ والاستعداد .. يعرض الأمة الإسلامية لخطر كبير، ويفقدها مميزاتها فى الحياة ..

والمؤمن فى عملية الجهاد والاستعداد، كأنه عقد مع الله سبحانه وتعالى صفقة أعطى فيها وبها، لله كل شئ، ليفوز بجنة الله التى أعدها للمجاهدين قال تعالى:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

يقول ابن القيم رحمه الله: «هذا أعظم بيع وقع فى الوجود، من أكبر مشتر، على أغلى سلعة، بأنفس ثمن، من أفضل بائع، فالمشترى هو الله، والبائع هم المؤمنون، والسلعة هى النفوس والأموال، والثمن هو الجنة».

والجنة لها تكاليفها وثمنها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

وكل هذا ينفى التواكل، والإهمال والكسل عن الأمة الإسلامية، .. وآية ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟﴾ تدل دلالة واضحة على أنه لا يجوز أن يتصور أهل الإيمان قيام الحياة، دون معاناة الجهاد، والبذل، والتضحية ..

وإن أى تصور يجنح إلى قيام الحياة دون هذه الخصائص، وهم باطل يؤدى إلى الضعف والذوبان والانسلاخ ..

والله سبحانه وتعالى، لا يرضى أن يكون حملة الإسلام، وحماة الدعوة الإسلامية من الجامدين الكسالى الذين ينتظرون النصر لمجرد أنهم مسلمون.

والأمة الإسلامية فى أشد الحاجة إلى استيقاظ كل الخلايا فيها، واحتشاد كل القوى، وتوفر كل الاستعداد، وتجمع كل الطاقات .. كى يتم النمو، ويكمل البناء، لأن تحركات الأعداء لا تتوقف. وتكالب الأعداء يزداد شراسة وسعاراً .. ولا جرم فان الحق الأعزل ضائع .. ولابد للحق من رجال وقوة، لا لتذود عن الحق فحسب بل لتطارد الباطل..

ولكن أى قوة تلك التى يمتدحها الإسلام ويطالب المسلمين أن يتسلحوا بها؟ إنها ولا شك ليست القوة الباغية الظالمة إذ رسالة الإسلام حرب على البغى والظلم والعدوان.

إذن فهى بالتأكيد القوة الواقفة بالمرصاد لأهل الإلحاد، والمادية والفساد والتخريب ..

والقوة فى الإسلام تعنى: قوة الجسم، وقوة العقل، وقوة العلم، وقوة الروح، وقوة الخلق، وقوة العزيمة، وقوة الإرادة، وقوة الأخلاق ..

والأمة مطالبة أن تهيئ نفسها بصفة دائمة ومستمرة .. وهذا كله جزء من العقيدة الإسلامية، وركن من العبادة .. وقد ربط الله بتحقيقه سعادة الأمة فى الدنيا، وفى الآخرة ..

إن الأمة الإسلامية، تملك من الطاقات البشرية، والإمكانيات المادية، والمواقع الاستراتيجية، ما يمكنها من أن تكون أعظم قوة فى الأرض .. لا لتضرب فى عتو وتجبر .. ولكن لتحفظ، وتقيم العدل بين الناس،

وتنشـر الأمـن والسـلام والاطمئنـان، وتـرد كيـد الكـائدين، والحـائكين المؤامرات فى الظلام.

والحمد لله أن أمتنا قد استيقظت .. وهى تعمل بكـل قـوة علـى رأب الصدع و لم الشمل، ومن الله سبحانه الهداية والتوفيق..

* * *

المسلمون والغرب والشرق

لقد أفلست الحضارة الغربية، رغم التقدم العلمى الهائل، الذى وصلت إليه، وبدأ الإنسان الأوروبى، يهرب من حضارته. لأنه لم يحس فى ظلها بالسعادة، و لم يجد فى مجتمعه الأمن، والأمان، والاطمئنان. فقد انتشرت عصابات القتل، والخطف، والتخريب، والإرهاب. تفاقم خطر الجريمة، وازداد عدد المجرمين، وامتلأت البلاد بجماعات الهيبز، والانحلال، والعربدة، والفجور وأقيمت نوادى للعراة. وأبيح فى غير استحياء الشذوذ الجنسى. إلى غير ذلك من إباحية وفوضوية.

وأخيرًا لهذا وغير هذا. لجأ الغربيون إلى الهروب من معتقداتهم الدينية، ومذاهبهم الاقتصادية. واعتنق الهاربون المبادئ المادية والفلسفات الخادعة، بحثا عن السعادة وفرارا من النظم الغربية الفاسدة.

ولعل القارئ يعرف أن اليسار أصبح يصول ويجول فى إيطاليا، وفرنسا وأسبانيا، والبرتغال. وهذه دول مسيحية، يهرب فيها المسيحيون إلى مذاهب إنسانية أخرى. ومن كان يتصور أن هذه الدول يكتسحها اليسار. لكن الهروب من المفاسد.. والقلق، يؤدى إلى الارتماء فى أى شئ، فهم على حد قول العربى: «كالمستجير من الرمضاء بالنار».

والشيوعية فى الشرق، وفى الغرب، قد أعلنت فشلها وبات الناس فى جحيمها، يئنون جوعا، ويبكون توجعا ويتألمون من شدة الكبت، وفقدوا كل كرامة، وكل شئ، إلا الإحساس بالجوع والحاجة إلى الطعام. فهم لم يشبعوا أبدا، لأن طعام الفرد محدد بالبطاقة، ومواد الغذاء غير متوفرة،

والبحث عن اللحم كما ذكرت الأنباء يقتضى السير إلى مسافة أربعمائة كيلومتر. وفقد الناس هناك الأخلاق والمحبة والرابطة الزوجية والأسرية. ومن هنا كلما أتيحت الفرصة لأحد من الناس، هرب إلى الغرب والدول المجاورة، برًا، أو بحرا، أو جوا.

وهكذا يهرب الأوربيون من نظمهم الوضعية، إلى اليسار الذى يقيمونه فى مجتمعاتهم .. ويهرب الشيوعيون من جحيم الاشتراكية إلى الغرب أملا فى الحرية وبحثا عن حياة أفضل.

وهكذا تعجز النظم البشرية والقوانين الوضعية عن تقديم أى عون للإنسان أو الأخذ به إلى الطريق السليم لأنها نظم قائمة على خدمة فئات معينة من البشر وقاصرة عن إدراك المصالح الإنسانية. وأننى أريد أن أوضح نقطتين هامتين:

النقطة الأولى:

أن الشيوعية التى دخلت بعض المجتمعات الإسلامية قد فرضت على الناس فرضا من قبل الثورات العسكرية العميلة للشئون الدولية أو جاءت من قبل حكومة ماركسية أتاح لها الاستعمار التسلط على أفكار الناس. ولم يحدث أن انتشر اليسار، أو الاشتراكية فى بلد إسلامى طواعية أو عن اقتناع وإيمان، كما حدث فى دول أوربا، وهذه ظاهرة جديرة بالدراسة، ويكفينا الآن أن نعرف أن هذا دليل على قوة العقيدة الإسلامية فى ذاتها.

النقطة الثانية:

أن المسلمين لم يحدث أن هجروا بلادهم فرارا من الإسلام ولكن الذى حدث أن بعض المسلمين هجر البلاد فرارا بالإسلام.

ولعل القارئ الكريم يعرف أن كثيرا من المسلمين فى مصر، وهم الصفوة الممتازة من المفكرين، تعرضوا إلى ألوان شتى من التعذيب، فقد

سيقوا إلى السجون، وصب عليهم العذاب صبا، وكان السجن وما فيه من أهوال أحب إليهم من السكوت عن المنكر. وقد رأيناهم وهم يساقون إلى أعواد المشانق .. لا لأنهم دعوا إلى المذاهب الهدامة، ولا لأنهم تجار مخدرات ولا لأنهم دبروا فى الظلام مؤامرات، ولا لأنهم سرقوا أموال الدولة، ولا لأنهم أحرقوا المصانع والمخازن، لإخفاء معالم الجريمة، ولكن لأنهم دعوا إلى أمر آخر، لا يتصل بما سبق من قريب أو من بعيد. لقد دعوا إلى الخير، وان أمر الأمة الإسلامية، لا يصلح إلا بما صلح به أولها.

فلماذا لا يفكر المسئولون عن **المجتمعات الإسلامية**، فى الحكم بالقرآن الكريم واتخاذ الإسلام منهجا للحياة الاقتصادية، والسياسية والعلمية، والفكرية.

ولماذا لا نجرب التشريع الإسلامى الذى جاء لإصلاح الخلق كما تفعل حكومة المملكة العربية السعودية ؟

لقد جربنا أنظمة البشر ففشلت، وأضرت بالمجتمعات وأهلكت الحرث والنسل، وساءت إلى الفكر والإنسانية.

والمجتمعات الإسلامية والعربية التى استوردت العلمانية، والاشتراكية والأحزاب المصنوعة. تعانى انحطاط فى التفكير، وتمزقا فى البناء وتشتتا فى الإدراك ولقد تأخرت هذه المجتمعات إلى الوراء مئات السنين .. وإذا كان المد الشيوعى قد تقلص وجوده فى المجتمع المصرى، والمجتمع السودانى والمجتمع الصومالى، فإن ذلك لا يعنى انتهاء خطر الشيوعية عن هذه المجتمعات الإسلامية وإنما يعنى أن النفوذ السوفيتى قد تقلمت أظفاره، وانحسر عن هذه الدول ..

وهناك مجتمعات إسلامية كثيرة، لم تخضع لأى نفوذ أجنبى، و لم تدخلها الشيوعية ورغم كل هذا، لا زالت تهرب من الحكم بالقرآن

الكريم، ويبدو أن هناك أيد صليبية خفية تسيطر على هذه المجتمعات، وتزين لها حياة اللهو والترف والشهوات..

لقد جربنا القومية العربية كصيغة ملائمة لجمع شمل الأمة العربية على مساحة مكانية تمتد من المحيط إلى الخليج، ومسافة زمنية كافية لنجاح التجربة. ومع ذلك قد فشلت القومية العربية، لأن الدعوة إلى القومية ليست من الإسلام، ووليدة الفكر الأوروبى.

وجربنا فى مجتمعات إسلامية الاشتراكية - وكانت التجربة مفروضة- وقلنا عنها: (أنها الصيغة الملائمة لتوحيد قوى الشعب العامل) .. واستمرت التجربة أكثر من عشر سنوات تحت رعاية وإشراف خبراء الاشتراكية. وكانت النتيجة المرة: أن ضاع الشعب العامل، وتمزقت قواه، وتبددت جهوده، وأحس الناس بالجوع، وهم أصحاب الأرض الزراعية، والخيرات الكثيرة منذ أن خلقهم الله فى هذه الأرض، وساد الناس القلق والحيرة، والفوضى، والإرهاب، ولم يعد هناك أمن ولا أمان .. وما ذلك إلا لان الاشتراكية، وليدة الفكر الشيوعى المتمدد، وهو فكر قاصر عن إدراك مصالح البشر .. وإذا كنا قد خضنا مع مجتمعاتنا الإسلامية، تجارب أنظمة بشرية وشاهدنا سقوط هذه الأنظمة أو ضياع الناس فى متاهات هذه الأنظمة.. إذا كنا خضنا وشاهدنا، فمن التجنى على المسلمين أن نطرح عليهم غير الإسلام.

إذا كانت أنظمة الفكر الغربى، قد سقطت وفشلت فى إسعاد الإنسانية، وتوفير الاطمئنان، والاستقرار .. فلماذا نبقى نحن متشبثين بفكر الغرب، ومذاهب الغرب ؟

وإذا كانت الشيوعية، قد فشلت فى بلاد الشيوعية، وأصبح الناس يفرون من هولها، فلماذا نبقى نحن مخدوعين بالاشتراكية واليسار والماركسية ؟؟

وإذا كان الناس فى الغرب يفرون من القلق والفوضى والإباحية إلى اليسار والاشتراكية .. والناس فى الشرق الشيوعى يهربون من الاشتراكية إلى بلاد الغرب فلماذا لا نتمسك نحن بالإسلام لنكون قدوة لأهل الغرب والشرق والناس جميعا ؟.

إن الإسلام قد انطوى على طاقة روحية، جعلت منه عند التطبيق قوة فعالة ومؤثرة بل أن فاعلية الإسلام، شملت حياة الأفراد وحياة الجماعات من جميع الجوانب، فى العبادة لله وحده، وفى تزكية النفس، وفى الحياة العملية، وفى المعاملات، وفى النظم الاجتماعية، وفى نظام الحكم، وفى صلة الحاكم بالأفراد. وفى تشريعات الأسرة والجماعة .. والشىء المهم فى قوة الإسلام الفاعلة والمؤثرة. أنها كانت أصلا جذريا يمس أساس الأوضاع فى حياة الناس ..

ومن هذا المنطلق يمكن أن نقول:

إنه إذا توفر للمسلمين فى المجتمعات الإسلامية. الوعى الكامل، والعلم والمعرفة، ووضوح الرؤى، واليقظة، والانتباه، والإدراك. إذا ما توفر لهم ذلك، استطاعوا فى قوة، أن يصدوا تحديات الفكر الأجنبى، ويواجهوا المطامع المتكالبة المسعورة، من هنا وهناك .. بل يصبح العالم الإسلامى... قوة فعالة مرهوبة، يخشى العدو بأسها، ويتهيب سلطانها.

* * *

المعول الذى حطم الحضارات

وصلت الحضارة الغربية إلى درجة من الرقى العمرانى والتقدم العلمى الهائل. ولكن قصة البشرية رغم التقدم الحضارى فيها مساوئ كثيرة زلت فيها أقدام البشر، وضاعت عقولهم فقد أطلقت الحضارة الغربية حرية الإنسان، وحررت غرائزه المكبوتة وتحولت الحريات إلى انحراف فى الغريزة وإلى شذوذ فى الطبيعة وإلى عدوان على حريات الآخرين، ونتيجة لهذه الحرية لم يعد هناك ضابط لسلوك أو تصرف.

وهذا الكاتب الغربى «كاميل فلامريون» يعبر عن هذه الحالة فيقول: «وأن من التناقض البين المؤلم أن نرى الرقى الباهر الذى حصل فى العلوم مما لا مثيل له فى التاريخ وأن هذه الفتوحات المتوالية التى تمت للإنسان فى الكون، بينما رفعت عقولنا إلى المدركات العالية أهبطت إنسانيتنا إلى أخس الدركات، ومن المحزن أن نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يوما بعد يوم تنطفئ حرارة قلوبنا وتضيع زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات الجسدية.

وأى قلب لا يتفتت كمدا وحسرة وأى حشاشة لا تذوب أسفا وحزنا إذا أدرك المفكر العاقل أن كثيرا من المجتمعات الإنسانية قد شاكل الناس فيها البهائم فى شرها وشهواتها وضارع الوحوش فى غرائزها وضلالها، وحاكى الشياطين فى حيلها وخداعها.

ومن تعاسة الحضارة المادية أنها عكست كرائم النعم والملكات التى أنعم الله بها على الإنسان عكسا أسقط الإنسان فى وديان الهلاك

والدمار، وسقط بالإنسانية دون عالم الحيوانات، فراجت خسائس العادات وذمائم الصفات من الاختلاط الفاضح، والشذوذ في السلوك، وظواهر الخنفسة والهيبز والارتخاص والابتذال والخلاعة، وقد كتبت إحدى المجلات الأمريكية تقول: «عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم وهي جميعها في تسعير سعير لأهل الأرض..

أولها: الأدب الفاحش الخليع الذي لا يفتأ يزداد في وقاحة، ورواجه بعد الحرب العالمية الأولى بسرعة عجيبة ..

والثاني: الأفلام السينمائية التي لا تذكي في الناس عواطف الحب الشهواني فحسب بل تلقنهم دروسا عملية في بابه.

والثالث: انحطاط المستوى الخلقي في عامة النساء الذي يظهر في ملابسهن وفي إكثارهن من التدخين واختلاطهن بالرجال، بلا قيد ولا التزام .. .

هذه المفاسد الثلاث فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالي الأيام. ولابد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفنائهما آخر الأمر، فإن نحن لم نحد من طغيانها فلا جرم أن يأتي تاريخنا مشابها لتاريخ الرومان ومن تبعهم من سائر الأمم الذين قد أوردهم هذا الاتباع للأهواء والشهوات مورد الهلكة والفناء»... انتهى ما ذكرته المجلة الأمريكية ..

ويلاحظ الباحث والدارس أن كثيرا من المجتمعات الإسلامية قد تأثرت بالغزو الحضاري الغربي، وليس ذلك التأثر في الجانب العلمي والصناعي والعمراني. ولكن وللأسف البالغ في أسوأ المساوئ. وأصبح الكثير من الناس يقلد الغرب في كل ما هب ودب، وما من ظاهرة من الظواهر العفنة، ولا موضة من موضات العصر، إلا ولها في مجتمعاتنا صدى واهتماما. والتقليد الأعمى من شر ما تبتلي به الجماعات، لأنه

يميت مواهب الفكر والنظر، ويؤدى إلى الجمود والضياع والذوبان، ولا يميز بين الحق والباطل، ولا بين الصواب والخطأ، قال تعالى:

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٦ - ٦٨].

وقد لا يغيب عن الفكر أن توفير السلوك الحرام فى الشقق المفروشة أصبح موردًا من موارد السياحة فى بعض البلاد ومن هذا ندرك أن بعض مجتمعاتنا تحف بها مخاطر مهلكة وقد نشرت مجلة آخر ساعة المصرية فى العدد الصادر فى ١١محرم ١٣٩٨هـ الموافق ٢١ديسمبر ١٩٧٧م، رسالة لكاتب يقول فيها: «الظاهرة الغريبة التى تلاحق كل الأجيال هى الجرى وراء ما يسمى بالموضة والمؤسف حقا أننا نمضى وراء الموضة بلا شعور ويأخذنا التقليد. والدليل على هذا ما تراه الآن فى الشوارع وفى المدارس وفى كليات الجامعة. أحيانا يكون من الصعب علينا بسبب الموضة التفرقة بين الطالب والطالبة، إنهما يلبسان نفس البنطلون ونفس البلوزة، أو القميص. وقصة الشعر واحدة، والشنطة يحملها الفتى فى ذراعه كما تحملها الفتاة تماما، والسيجارة تشربها الفتاة فى الشارع كما يفعل الشاب. يجب أن نفكر قبل أن تستفحل الكارثة»..

نعم يجب أن نفكر قبل أن تحل بنا الكارثة، لقد كانت الشهوات، وفوضى الجنس، هى المعول الأول الذى حطم الحضارات القديمة، حضارة الإغريق، وحضارة الفرس، وحضارة الرومان، وحضارة أمم أخرى كثيرة. ويقول شهيد الفكر الإسلامى سيد قطب:

«والبشرية اليوم فى مفترق الطريق وهناك اضطراب فى الأفكار، وحيرة فى الاتجاهات وزعزعة فى النظم. وانه لابد للمجتمعات اليوم من عقيدة.. فخواء المجتمعات الغربية من العقيدة يجرفها دولة بعد دولة، وشعبا بعد شعب،

إلى هاوية المادية. وهذه المجتمعات الغربية لا تملك أن تدفع عن نفسها هذه الكارثة. لأنها تعتمد على القوة وحدها في دفع مذهب يصوغ نفسه في شكل عقيدة.. أما نحن فإننا نملك. إننا نملك إقامة نظامنا الاجتماعي على أساس عقيدة أقوى وأكمل و أشمل».

ومن هنا كان على المسئولين والمفكرين والمصلحين والدعاة أن يضاعفوا جهود الإصلاح، ويبذلوا ما في وسعهم لتطهير المجتمعات من وباء الرذيلة، ولعلنا نتدارك قبل فوات الأوان.

* * *

الميزان الإسلامى

التقوى مصطلح إسلامى، واسع المعنى، يضم القيم الإسلامية الرفيعة، التى جاء بها الإسلام لصلاح الإنسانية فى الدنيا والآخرة .. والتقى هو من جعل بينه وبين المعاصى وقاية، تحول بينه وبينها، من قوة العزم، وتصميم الإرادة، وتوطين القلب.

ويقول العلماء: إن التقوى هى ترك ما نهى الله عنه، وفعل ما يستطاع من الخير والطاعة، ويسمى الخوف تارة تقوى، والتقوى تارة خوفاً حسب تسمية المقتضى بمقتضيه، والمقتضى بمقتضاه، وصارت التقوى فى عرف الشرع حفظ النفس عما يؤثم وذلك بتجنب المحظور ويقول الزمخشرى فى الكشاف عند تفسير قوله تعالى: فى سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة :٢].

«إن المتقى فى اللغة اسم فاعل من قولهم: وقاه فاتقى والوقاية فرض الصيانة. والمتقى فى الشريعة: الذى يقى نفسه تعاطى ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك. والمتقى لا يطلق إلا عن خبرة «ومعنى قول الزمخشرى»: «لا يطلق إلا عن خبرة»: إن الحكم بالتقوى على الإنسان لا يكون إلا إذا صدر منه عمل يشهد له بذلك ..

والتقوى: تقوى عن الشرك .. وتقوى عن المعاصى .. وتقوى عن البدعة. وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى فى آية واحدة، هى قوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا

طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

فالتقوى الأولى، تقوى عن الشرك والإيمان المذكور في مقابلة التوحيد.. والتقوى الثانية، تقوى عن البدعة، والإيمان المذكور معها إقرار السنة والجماعة. والتقوى الثالثة، تقوى عن المعاصي الفرعية .. وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

يفيد أن الأمر كله راجع إلى التقوى .. وقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ [النساء: ١٣١].

يشعر كل عاقل ومفكر ومدرك انه لو كانت في عالم القيم خصلة هي أصلح للإنسان، وأجمع للخير، وأعظم للأجر، وأجل في القدر، وأولى في الحال وأنجح في المال، من هذه الخصلة، لكان الله سبحانه وتعالى أمر بها، وأوصى الناس بذلك ..

والتقوى الجامعة هي اجتناب كل ما فيه ضرر لأمر الدين والدنيا، وتقوى الله في مدلولها العام، ومفهومها الشامل ترجع إلى اتقاء الإنسان كل ما يضره في نفسه، وفي أسرته، وفي مجتمعه، وما يحول بينه وبين المقاصد الإنسانية، والكمال الممكن في الدنيا والآخرة .. وما شرعه الله في رسالة الإسلام أمراً ونهيا، وسيلة لهذا الكمال النفسي، والكمال الخلقي، والكمال الفكري، والسلوكي.. وقد كثر في القرآن الكريم أمر الناس بالتقوى وجاء ذلك على أساليب مختلفة، وتنبيهات متعددة، وتوجيهات رائعة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

إلى غير ذلك من الآيات التى أمرت بالتقوى .. وهناك الآية التى جاءت فى سورة الحجرات. تقرر أصلاً عظيما من أصول الإسلام، وهو المساواة بين الناس، فلا فضل لعربى على عجمى، ولا أبيض على أسود، ولا لغنى على فقير، ولا لكبير على صغير. إلا بالتقوى. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد وردت هذه الآية الكريمة فى سورة الحجرات، بعد النهى عن التجسس والغيبة. وجاءت الآية منبهة على تساوى البشر، فلا يجوز لأحد أن يفخر على الآخرين ولا يجوز لأحد أن ينتقص أحدا أبدا .. لأن الميزان العملى هو (التقوى) روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سئل رسول ﷺ: أى الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم»..

ونقل الأمام أحمد فى مسنده. عن عميرة زوج درة بنت أبى لهب عن درة بنت أبى لهب قالت: قام رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله أى الناس خير؟ قال ﷺ: «خير الناس أقراهم، واتقاهم لله عز وجل، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم».

والكرامة فى الإسلام لا ترتبط بالنسب ولا بعظيم الرتب، ولكنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالعمل. وعمل الإنسان هو الذى يوزن به. وميزان الحياة ليس كلاما يقال، أو عبارات ترددها الألسن، أو فضلا يدعيه هذا أو ذاك، وإنما ميزان قائم على العمل، قال الكاتب الكبير عباس محمود العقاد فى كتاب «الإنسان فى القرآن»: «التقوى كلمة واحدة، تجمع كل وازع يزع الضمير، وأقدر الناس على أمانة التقوى، وأقدرهم على النهوض بالتبعة وأعرفهم بمواضع المعروف، والمنكر والمباح والمحظور .. والإنسان التقى هو الإنسان: «الإنسان».. ما هذه التقوى التى يتعلق بها كل فضل الإنسان عند رب العالمين ؟ لو شاء فلاسفة الأخلاق لعلموا ما هى هذه التقوى، وعلموا حقا أن موازينهم جميعا لا تحسن الترجيح بين فضل وفضل، وبين قدرة وقدرة، كما تحسنه هذه التقوى التى يحسبونها تسبيحة من تسابيح المعابد. ويخيل إليهم أنها أفشل من أن تنفع العالم المحقق فى مقام الموازنة والتفضيل، فليس بين فاضل ومفضول قدر من رجحان غير رجحان الأفضل فى القدرة على التبعة بما طاب لهم من ألوان التبعات .. هى موضع الرجحان للعالم على الجاهل، وللرشيد على القاصر، وللذكى على الغبى وللقادر على العاجز، وللمجد على المحروم، وللغنى على الفقير، وللسيد على العبد، وللحاكم على المحكوم ولصاحب الخلق المتين على صاحب الخلق الهزيل، ولكل فضل، فالإيجاز على كل مفضول .. وما من ميزان ينفع فلاسفة الأخلاق فى طائفة فى هذه الخصال إلا لهم طائفة غيرها بل فى أكثرها وأحوجها على الموازنة والتفضيل .. فليست جملة الإنسان ماثلة فى تفضيل العلماء على الجهلاء، أو الراشدين على القصر، أو الأذكياء على الأغنياء، أو غير هؤلاء على غير هؤلاء من الفاضلين على المفضولين، فإن العالم يفضل الجاهل بالعلم ولا مراء. ولكنه قد يؤوب مفضولا عند المقابلة بينهما فى باب من أبواب الغيرة أو نزعة من نزعات الفطرة، وهكذا كل راجح وكل مرجوح بميزان المال أو النسب أو الأخلاق والعادات .. ولكننا إذا حكمنا بأن إنسانا يفضل إنسانا بالقدرة على التبعات فهو الراجح لا مراء فى كل

ميزان من موازين المفاضلة بين بنى الإنسان وكل قيمة تحسب للإنسان فهى داخله فى هذا الحساب، فإن جاز أن تهمل ويبقى الإنسان بعدها أهلا للرجحان بالتبعات، فهى مهملة حقا، ولو كان لها شأنها فى غير هذا الإنسان ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] صدق الله العظيم. انه لهو القسطاس الذى ينشئ «للإنسانية» حقوق المساواة بين أبنائها، دينا وعلما، وفلسفة وشريعة، وإلهاما من الوحى الإلهى، وتمحيصا من البديهة الإنسانية».. والميزان الذى يوزن به الإنسان، ليكون إنسانا على الحقيقة، هو الميزان الإسلامى الذى ينحصر فى نقطة واحدة هى «التقوى» والتى أشبعها القرآن الكريم ذكرا وترديداً وتصريفاً واشتقاقا، فقد وردت بجميع الوجوه فى مائتين وأربعين موضعاً، من آيات القرآن الكريم.. وهذا كله يعطى حقيقة واضحة، وهى أن كلمه التقوى بمفهومها ومدلولها وتصريفاتها، واشتقاقاتها أمراً ومصدرا ومفعولا واسم فاعل، ومضافة، ومفردا وجمعا، وفعلا واسما قد اشتملت على كل القيم الهادفة، لصلاح الإنسانية...

وثمرات التقوى كثيرة، وفوائدها فى الدنيا والآخرة جليلة، ومن ذلك البشرى قال تعالى فى سورة يونس:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٣، ٦٤].

ومنها: العون والنصرة، والعلم والحكمة، واليسر والسهولة والخروج من الغم والمحنة والأمن والاطمئنان، والرزق الواسع، والفوز بالمراد، والنجاة من العذاب، والتوفيق، ومغفرة الذنوب، والفلاح، ونيل الوصال، والبشارة بالكرامة، والصفاء، وكمال العبودية، والأمن من البلية، وزوال الخوف والحزن، والتأييد والنصر، والفرقان والحفظ والحراسة، من كيد الأعداء، والأجر العظيم إلى غير ذلك من النتائج والمسببات .. فالتقوى هى ذلك الخلق النفسى الذى يجعل من الإنسان رقيبا على نفسه، فى كل تصرف من تصرفاته، وفى كل جانب من

جوانب سلوكه فى حياته، أنها الرقيب الذى ينادى الإنسان دائما، أن يقوم بواجبه ليرضى الله سبحانه وتعالى، وان يكون القيام بالواجب معتمدا على صدق النية الحسنة والإجادة والإتقان، ومن المنطلق العلمى ندرك أن التقوى سلوك صحيح، ووعى وإشعاع، وقوة وجهاد، وحركة وفاعلية، فإذا اخلص الموظف فهو تقى وإذا اخلص الزارع فى زراعته وادى للأرض حقها من الخدمة فقد اتقى وإذا اخلص الإنسان المسلم، أياً كان وضعه فى المجتمع، وأياً كانت مهمته، كان تقيا نقيا ..

ويوم أن كان المسلمون أتقياء، وعاملين بتعاليم الإسلام، لا تفرقهم الأهواء السياسية، والأحزاب القومية، والمذاهب الإنسانية يومها كانوا قوة لا تضارعها قوة، ولقد استطاعوا فى سرعة مدهشة أن ينشروا الإسلام فى شعوب كانت قائمة فى عماء الوثنية والجهل، كما تمكنوا من رفع الظلم والتسلط والاستعباد الواقع على الشعوب..

وأن الأمة الإسلامية، تواقة إلى وعى القيم الإسلامية التى تمكنت فى الماضى من جعل الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

* * *

الحضارة الإسلامية من جديد

لقد تميزت الحضارة الإسلامية بخصائص، جعلتها فريدة فى التاريخ وفريدة فى تحقيق ما يسعد الإنسانية .. وهذه الخصائص والمميزات نجملها فى النقاط التالية:

أولا: الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وإفراده بالعبادة والتعظيم والإيمان بالله هو الدافع الأساسي للقيم الحضارية، قال تعالى فى سورة الرعد: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والإيمان بالله قوة دافعة، تسدد الضعيف أن يسقط، وتمسك القوى أن يجمح، وتردع الغالب أن يطغى ويفجر، وتمنع المغلوب أن ييأس وهو يملأ النفوس بالفضائل ويزكيها ويقوم الضمائر، ويسدد العزائم، وعماد الرضا والقناعة، ونور الأمل فى الصدور ..

ولهذا كرر رب العزة النداء فى القرآن الكريم بصيغة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وخطاب المؤمنين بالذين آمنوا هو مثل أنواع الخطاب، إبانة لحقيقتهم، هذا إلى ما ينطوى عليه من الدلالة على سموهم وفضلهم.

وفى النداء بيا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، زيادة إيناس وتكريم، لأن أحب شىء إلى الإنسان هو أن تناديه بما يدل على سموه والله سبحانه وتعالى بهذا النداء، يشعر المؤمنين بأنه يخاطب أقرب الأشياء منهم إليه. وما فى الإنسان شىء أقرب إلى الله من الإيمان به ..

والله حينما يتوجه إلى المؤمنين من خلال إيمانهم، فسيكون التالى: تعليما بموجبات هذا الإيمان، وحثا على قيام بها، فى أى شأن من الشئون، وفى ضرب من ضروب الحياة .. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عبادة المؤمنين فى القرآن الكريم بهذا النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فى ثلاثة وثمانين موضعا .. والآيات الثلاث والثمانون فى جملتها، تبين أن الإسلام قد انطوى على طاقة روحية فعالة، جعلت منه قوة هائلة. وهذه الآيات كانت ولا زالت أصلا جذريا يمس أساس الأوضاع فى حياة الناس .. والإسلام فيها يراعى حاجة الإنسانية ومصالحها الحيوية، فى حدود الحق والفضيلة والعدل .. والإسلام فيها وليد العقيدة التى تطهر النفس، وتذكى القلب، وتربى الخلق، وتغذى العقل، وتوقف الغريزة عند حدها. وتعطى كل مطمح من مطامح الإنسان معناه الذاتى وسيره الطبيعى. والإسلام فيها: عقيدة استعلاء يبعث فى روح المؤمن الإحساس بالعزة من غير كبر، وروح الثقة فى غير اغترار، والشعور بالاطمئنان من غير تواكل».

وأثر الإيمان يبرز بوضوح فى الحضارة الإسلامية التى غيرت وجه التاريخ.

ثانيا: ومن الخصائص البارزة للحضارة الإسلامية. أنها تقوم على خلوص النية، ونقاء الضمير، والتمسك بقيم الخير والحق، والتزام الآداب الفردية والاجتماعية .. . ومن هذا المنطلق كانت الأخلاق هى الإرادة المنفذة، والضمير الموجه. وجملة ما يراد أن يقال أن الأخلاق التى جاء بها القرآن شملت الحياة كلها .. ..

ثالثا: وفى الاقتصاد تقوم على تبادل المنافع، واتخاذ المال وسيلة لا غاية، واحترام الملكية الفردية، زفلسفة الاقتصاد الإسلامى تستهدف مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة والموازنة والمواءمة بينهما، وتحدد أهداف النشاط الاقتصادى وفقا لمبادئ الإسلام، وتقرر فى وضوح أن الإنسان

خليفة الله فى الأرض، وبمقتضى هذه الخلافة صار مسئولا عن المال من أين اكتسبه وفيما أنفقه. ومن هذا المنطلق الإسلامى كان الاقتصاد فى الإسلام متميزا عما عاداه من المذاهب الاقتصادية بسياسة لا ترتكز على الفرد شأن الاقتصاد الرأسمالى، ولا على المجتمع شأن الاقتصاد الاشتراكى. فإن الاقتصاد الرأسمالى يقوم على المنافسة الدنيئة، والمزاحمة والمصلحة الشخصية، والمنفعة الذاتية والحرية المطلقة .. . والاقتصاد الاشتراكى يقوم على حيوانية الإنسان، وقتل غريزة التملك، ووأد كل القيم والفضائل الإنسانية .. أما الاقتصاد الإسلامى فيقوم على رعاية الفرد، ورعاية المجتمع، وتضم هذه الفلسفة المتميزة فى إطارها مطالب المادة، ومشاعر الروح، ومكارم الأخلاق. وفى سبيل هذا الإطار الاقتصادى المتميز حرم الله الربا، والغش، والسرقة، وأكل أموال الناس بالباطل ..

وقد أثبت التاريخ أن الذين تربوا فى مدارس القرآن، هم وحدهم الذين صلحت بهم الحياة، واعتدل فى أيديهم ميزان الحق، والعدل ..

ولقد كانت المملكة الإسلامية تزدهر بالعلم والحضارة شرقا وغربا، وتنتشر فيها أرقى الصناعات على اختلافها، وما تركه المسلمون من تراث علمى، لأكبر شاهد على ذلك ..

ولقد تلمست أوربا الحضارة الإسلامية. فاستقت من روافدها العلوم والمعرفة من الفلك والجبر والهندسة والحساب والكيمياء والطب والزراعة، وسائر أنواع الفنون الحضارية. وبنى رجال أوربا بما تعلموه فى معاهد المسلمين بالأندلس، وبما نقلوه من علوم .. بنوا أسس النهضة الحديثة التى ظهرت بوادرها فى القرن الثامن عشر، وازدهرت فى القرن العشرين ..

والإسلام بدعوته إلى العلم هو الذى خرج جهابذة الفكر. ورجال الحضارة أمثال ابن الهيثم، وابن البيطار، وابن سينا وابن النفيس، وابن

زهر، وابن بطوطة، والكندى، والفارابى، والدينورى، والطوسى، والزوينى، والبغدادى، والزوينى، والزيونى، والأنطاحى والخوارزمى، والأدريسى والمسعودى، وجابر والحافظ، وغيرهم ممن أفادوا الإنسانية. وهذا ابن الهيثم يبحث فى السهول والأودية، ويجول فيها طولا وعرضا، حتى يضع قواعد علم النشوء. وابن الدجيلى، يسهر على قمم الجبال العالية، يحدق فى الكواكب والنجوم، ليحدد أفلاكها، ويعرف أبعادها، ويقيس محيط الكرة الأرضية، وعبد الله الخوارزمى العالم المسلم الذى ولد فى إقليم خوارزم[1]، أول رجل فى العالم يضع أصول علم الجبر، وفى كتابه «الجبر والمقابلة» يقسم العلماء إلى ثلاثة أقسام: فمنهم المخترع المبتكر الذى لم يسبق إليه، ومنهم الذى يتناول أراء العلماء قبله بالشرح والتفصيل والتوضيح، ومنهم الذى لم يكلف نفسه أكثر من جمع المتفرق.

وأبو الريحان محمد البيرونى الذى ولد فى بيرون، وهى مدينة صغيرة تتبع مدينة خوارزم. يساهم فى الفلك والرياضيات، بمساهمات فعالة. وابن النفيس العالم الدمشقى، يجرى التجارب والاختبارات، حتى يثبت أن الدم ليس سائلا مستقرًا فى الأوردة والشرايين. بل هو سائل متحرك، يدور فى جميع أجزاء الجسم، وذلك قبل أن يكتشف العالم البرتغالى «هارفى» الدورة الدموية بثلاثة قرون.

وابن مسكويه ذلك المفكر الإسلامى الكبير الذى طرق الدراسات الأخلاقية والنفسية فذلل متونها، وسبق علماء أوربا، فيما وصل إليه من النظريات النفسية والسلوكية .. هذا كله فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تعيش فى ظلمات الجهل والهمجية، ولم ينقذ أوربا من ورطتها التى كانت واقعة فيها إلا نور الإسلام. ومازالت أسماء العلوم والمصطلحات التى أعطاها العلماء المسلمون لغرائب العلم، مازالت حية فى جميع اللغات رغم ما مر عليها من تحريف وتغيير ولقد سجل التاريخ الحضارة

(١) اقليم خوارزم هذا من الاقاليم الإسلامية التى كانت عامرة بالعلم والعلماء، وهو واقع الآن فى قبضة الاستعمار الشيوعى الروسى.

الإسلامية بإغراز. . وتقول الكاتبة الألمانيـة الدكتـورة سيجريد هونكـة، فى كتابها «شمس العرب تشرق على الغـرب» تقـول: «أن هـذه الطفـرة العلمية الجبارة التى نـهض بـها أبنـاء الصحـراء مـن العـدم، مـن أعجـب النـهضات العلميـة الحقيقيـة فـى تـاريخ العقـل البشـرى، فســيادة أبنــاء الصحراء التى فرضوها على شعوب ذات الثقافـات القديمـة، وحيـدة فـى نوعها، وأن الإنسان ليقف حائرا أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة» ..

وأن مـن يمعـن النظـر فـى أعمـاق الحضـارة الإسـلامية، ومـا حققتــه للإنسانية من أسباب النمو، وعوامل الازدهار، ويلـم بما جـاء بـه الفكـر الإسلامى، من مفاهيم تناولت أهم معضــلات الحيـاة أن مـن يتعمـق فـى ذلـك، يدهشـه مـدى عمـق التفكـير الواعـى الـذى بلـغ ذروتـه علمـاء الإسلام، وقـد يتضـاعف إعجـاب البـاحث، بـهذا الفيـض الزاخـر، مـن الجهود العلمية التى شرقت بالحضارة وغربت وملأت الدنيا بإشـراقها .. وربما تزداد دهشة البـاحث العـاقل، والمفكـر النـاصح، ويتعـاظم تمجيـده لحركة التحول الخطـيرة التـى أصـابت المجتمـع العربـى، فـى تلـك الفـترة القصيرة. ترى أى سـر هـذا الـذى استطاع أن يحـول عـرب الصحـراء، وهذه الشعوب المتفرقة .. إلى أساطين فى العلم، ومشاعل فى الحضـارة، ومنارات فى الثقافة؟ وأى قوة رفعت العرب من حال البداوة التى كـانوا عليها إلى أبطال وقادة يفتتحون أعظم الممـالك وأوسعها، ويجولـون فـى الأرض غـير هيـابين ولا وجلـين .. ؟ .. وأى دعـوة هـذه التـى حولـت الناس من الجـهل والجاهلية والمذاهـب الوضعيـة، إلى النـور الـذى يخـرج الناس من الظلمات إلى النور .. ؟ .. ليس من المعقول فى نظر المفكـر .. ولا من المقبول فى نظر الباحث .. ولا من المعروف فى نظـر الـدارس .. أن يطفر الفكر العربى الذى قيدته ظروف الحياة القبلية الآسنة اليبوس .. إلى مثل هذه المرتبة العاليـة. دون أن تكـون هنـاك الأسـباب القويـة التـى دفعت به إلى الحياة المتحركة دفعا .. فما هى تلك الأسباب التى استقى منها الفكر الإسلامى مادة حيويته وحركته ؟ وما هى المـوارد التـى نـهل منها أسباب تكامله ..

إن المنبع الأول والأصيل الذى استقى منه الفكر أسباب تقدمه ونمائه، هو القرآن الكريم، فهو السر الكامن، وهو القوة المحركة، وهو الدعوة القائمة المستمرة وذلك أن القرآن لم يكن كتاب دين يحث على العبادة وتوحيد الله فحسب، وإنما كان إلى جانب تأكيد وحدانية الله، وما يتبعها من عقائد وعبادات .. منبعا أصيلا من منابع الحضارة، ولقد كان أول أثر من آثار القرآن فى الحضارة الإنسانية، الاهتمام الواسع بالعلم، وذلك أن العلم عنوان التقدم الحضارى .. ولقدكانت عناية القرآن بالعلم تفوق حد الوصف واستطاعت توجيهات القرآن العلمية أن تكون منهجا علميا سليما، حدد به المسلمون موقفهم من مشاكل الكون والحياة ..

ومن هنا كان التفكير العلمى فى الإسلام، يقوم على الموضوعية، والصدق، ومن الحوادث البالغة الدلالة على العقلية الموضوعية، لدى الفكر الإسلامى، ما حدث مصادفة، .أن كسفت الشمس يوم مات إبراهيم بن محمد رسول الله ﷺ. فقال قوم انها كسفت لموت إبراهيم .. فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته». وبهذا قرر الرسول الصادق، مبدأ علميا، يعتمد عليه المسلمون، فيما يتصل بالكون وما فيه) ..

وفى حادثة فيضان نهر النيل، باقليم مصر الإسلامى، موضوعية علمية، تنبىء عن نظافة الفكر الإسلامى .. حيث كان الاعتقاد قبل الفتح الإسلامى، أن النيل لا يفيض بالماء، إلا ألقيت فيه فتاة حسناء، لتموت فيه غرقا. فلما حان وقتذاك كتب الحاكم عمرو بن العاص، والى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، فى المدينة المنورة عاصمة الخلافة الإسلامية يخبره بما تعود عليه المصريون فأجابه عمر بإرسال رسالة، يلقها فى النيل، وكان فى الرسالة: «من عمر أمير المؤمنين إلى النيل: إن كنت تجرى من عندك فلا حاجة لنا بك، وإن كنت تجرى بفضل الله، فاللهم بارك لنا» ..

وفى ميدان التطبيق العملى، نجد أن عمر بن خطاب فى خلافته قد أمر بقطع شجرة الرضوان، لأن بعض الناس قد أسبغ عليها صفات غير موضوعية.. وهذا وأمثاله مظهر للتفكير العلمى الموضوعى لدى المسلمين ينبىء لكل عاقل أن الإسلام هو الدين الحق والصراط المستقيم.

ولهذا كانت للمسلمين حضارة، وعلوم، ومخترعات .. وكانت هناك تشريعات وفلسفة وقوانين، وطب، وفلك، ورياضيات، وآداب، واجتماع وتاريخ وجغرافيا، وكيمياء، وآداب للسلوك .. وكان لكل هذه العلوم أساتذة عباقرة، كأئمة الفقه، وعلماء التفسير، ورجال الحديث،الذين خرجوا المسائل والأحكام الفقهية، وضبطوا أساليب النقد، وقعدوا قواعدالتشريع .. ويذكر لنا التاريخ عشرات المئات من العلماء فى كل فن: أصبح هناك قادة وحكام لم يعرف التاريخ لهم مثيلا.. وهم لم يدخلوا الكليات الحربية و لم يدرسوا فى مدارس عسكرية .. ولكن دخلوا شيئا واحدا، هو كلية القرآن الكريم، ومدرسة الإسلام الحنيف .. وهناك مدن امتلات بالعلم والعلماء ومعاهد الحضارة، مثل: القاهرة وبغداد، ودمشق، وقرطبة، غرناطة، واشبيلية، وبخارى وغيرها من العواصم التى تزخر بكل ألوان الحضارة .. وكانت هناك دول وممالك، فى الشرق والغرب، بسطت نفوزها الإسلامى وعقيدتها، وعبقريتها، وشرقت وغربت حتى نشرت الفكر الصحيح .. وكل هذا كان بفعل الاتجاهات – القرآنية التى غرسها الإسلام فى قلوب الناس، والتى أدت إلى تنمية القوى العقلية فى الانسان المسلم، ففتحت امامه افاقا واسعة لاحدود لها».

واليوم على الغيورين أن يدرسوا حال المسلمين، الذين ابتلوا بالأفكار المستوردة، والأحزاب الحمراء المتنمرة. لنرى هل يمكن أن تعود حضارة المسلمين وتشرق من جديد، لتنقذ الإنسانية من بلاء الإلحاد. وحضارة المادية العفنة .. وقبل أن نقرر امكانية عودة الحضارة الإسلامية أضع أمام القارئ الحقائق التالية:

أولا: العالم الإسلامى حباه الله بأعظم النعم، إذ يتربع على كنوز ثمينة ويربض على ثروات معدنية هائلة، ويملك من حقول البترول أجداها نفعا، وأكثرها سخاء وثراء وأقواها تدفقا وعطاء.

ثانيا: يملك العالم الإسلامى من شواطئ البحار والأنهار، والممرات، والطرق البرية، والبحرية، والجوية، مايجعله فى مركز القيادة، ويمكنه من المساهمة والإشراف والتحرك الفعال.

ثالثا: مناطق الثقل فى العالم الإسلامى بعيده عن القطبين، ومصونة من الأعاصير، والطوفانات، والثلوج، والمد، والجزر، والبراكين وهذا يتيح لها ما تستطيع به العمل والتقدم ..

رابعا: العالم الإسلامى غنى بالمحاصيل الزراعية، والإنتاج الحيوانى، مما يمكن من قيام صناعات متقدمة ومتطورة.

خامسا: يعيش العالم الإسلامى اليوم فى يقظة واعية، وصحوة صحية، وإذا أحسن توجيهها، أثمرت ..

تلك وغيرها أمور تجعل العالم الإسلامى، قوة إيجابية، مرهوبة الجانب مهيأة لإنقاذ الإنسانية من وهدة الضياع .. ولاشك إن الأمور الخمسة المذكورة مع ما سبق ذكره من مقومات الحضارة الإسلامية، هى أسباب قيام حضارة كاملة .. ومن هنا نقول فى غير تردد، أن عودة المسلمين إلى إقامة حضارة إسلامية أمر ممكن، ولا يحتاج منا إلى أن نجرب أنظمة الأمم، ولا أن نتمسك بأحزاب بعثها المخربون، ولا أن نمزق المجتمع الواحد إلى يمين ووسط ويسار، واشتراكين وأحرار .. وإنما يحتاج إلى أمر واحد فقط هو الإسلام، الإسلام سلوكاً وعملاً، والإسلام ثقافة وتربية، والإسلام نظاما وحياة، ولن يصلح آخر الأمة إلا بما صلح به أولها والله الموفق ..

* * *

فهرس المراجع والمصادر

أ

١ – القرآن الكريم

٢ – الامتاع والمؤانسة، لأبى حيان التوحيدى ، ط لجنة التأليف. القاهرة

٣ – أطوار الثقافة والفكر، على الجندىوأخرين، ط الانجلو مصرية. القاهرة

٤ – الايمان وأثره فى بناء المجتمع، للاستاذ كامل همام، ط المجلس الأعلى. القاهرة

٥ – الاسلام على مفترق الطرق ، محمد اسد، ط جامعة القاهرة.

٦ – أثر المدنية الاسلامية فى الحضارة الغربية ، للدكتورمختار القاضى، ط المجلس بالقاهرة

٧ – أثر العرب فى الحضارة الأوربية ، عباس محمود العقاد، ط دار المعارف القاهرة

٨ – الدعوة الاسلامية أصولها ووسائلها، للدكتور أحمد أحمد غملـوش دار الكتـاب اللبنـانى بيروت

٩ – الاشارات والتنبيهات، لابن سينا، ط دار المعارف القاهرة.

١٠ – القرآن والتفكير، للدكتور حمد الحوفى، ط المجلس الأعلى بالقاهرة

١١ – الدين والحضارة الانسانية ، للدكتور محمد البهى، ط دار الهلال.

١٢ – المسلمون بين والماضى والحاضر والمستقبل ، وحيد الدين خان، ط المختار الاسلامى.

١٣ – التفكير فريضة اسلامية ، عباس محمود العقاد، ط المؤتمر الاسلامى.

١٤ – الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد، ط دار الهلال.

١٥ – الانسان فى القرآن، عباس محمود العقاد، ط دار الهلال.

١٦ – الشيوعية والانسانية، عباس محمود العقاد، ط دار الهلال.

١٧ – الاسلام يتحدى، وحيد الدين خان، دار البحوث العلمية الكويت

١٨ – استراتيجية العالم الاسلامى ، مجموعة بحوث، وزارة الحج مكة المكرمة.

٦ – الثقافة الاسلامية فى رعاية الشرق الوسط ، د جورج سارطون. بيروت ،

٢٠ – الاسلام والشيوعية، الادارة العامة للدعوة، وزارة الاوقاف. القاهرة.

٢١ – تراث الاسلام، شاخت وبوزورت، عالم المعرفة الكويت.

٢٢ – الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ، مجموعة بحوث، مؤتمر برنستون

٢٣ – الاتقان فى علوم القرآن، للحافظ جلال الدين السيوطى، ط الحلبى
٢٤ – احياء علوم الدين، للامام الغزالى، ط كتاب الشعب القاهرة
٢٥ – اسلام بلامذاهب ، للدكتور مصطفى الشكعة، ط النهضة العربية بيروت
٢٦ – الاسلام والحضارة العربية ، محمد كرد على، ط لجنة التأليف القاهرة
٢٧ – الاسلام دين العلم والمدنية ، للامام محمد عبده، ط دار الهلال.
٢٨ – الاسلام عقيدة وشريعة، للشيخ محمود شلتوت، ط الأزهر.
٢٩ – اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعى، ط المكتبة التجارية.

ب

٣٠ – بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ، للفيروز اباذى، ط المجلس بالقاهرة.
٣١ – البيان والتبيين، لابى عثمان بن عمرو الجاحظ ، ط لجنة التأليف القاهرة.
٣٢ – بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب ، للألوسى البغدادى ، الطبعة الرحمانية.
٣٣ – البحر المحيط، لابن حيان الأندلسى، مطبعة السعادة. القاهرة.

ت

٣٤ – تفسير القرآن العظيم، للامام ابن كثير، ط كتاب الشعب.
٣٥ – تفسير النسفى، لابن البركات النسفى ، ط داراحياء الكتب القاهرة
٣٦ – تفسير سورة الفاتحة، للامام محمد عبده، كتاب التحرير.
٣٧ – تفسير جزء عم، للامام محمد عبده، مطبعة الشعب.
٣٨ – تفسير جزء تبارك، للشيخ عبد القادر المغربى ، كتاب الشعب.
٣٩ – تفسير المنار، للشيخ محمد رشيد رضا، ط كتاب الشعب.
٤٠ – تفسير الجلالين، لجلال السيوطى وجلال المحلى ، ط مكتبة المليجى.
٤١ – تفسير القرطبى ، للامام القرطبى، ط كتاب الشعب.
٤٢ – تفسير فى ظلال القرآن، للامام سيد قطب، ط بيروت.
٤٣ – التمهيد لتاريخ الفلسفة، للاستاذ مصطفى عبد الرازق ، لجنة نشر الجامعيين القاهرة.
٤٤ – تاريخ التمدن الاسلامى، جورجى زيدان، ط دار الهلال .
٤٥ – تاريخ العرب قبل الاسلام ، للدكتور جواد على، ط المجتمع العلمى العراقى
٤٦ – تاريخ الاسلام السياسى والثقافى والاجتماعى ، للدكتور حسن ابراهيم، ط النهضة العربية.

٤٧ – تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى، دار الكتاب العربى. بيروت
٤٨ – تاريخ الحضارة الاسلامية ، درفا سيلى بارتولد، ترجمة حمزة طاهر دار المعارف
٤٩ – تاريخ الفلسفة الاسلامية، للدكتور دى بور، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبوزيدة القاهرة
٥٠ – تراث الاسلام، الفرد جيوم، ترجمة خطاب عطية القاهرة
٥١ – التوعية الاجتماعية، للاستاذ أنور احمد، ط الشعب. القاهرة

ث

٥٢ – الثقافة الاسلامية من بعض زواياها، مجموعة بحوث ، كراتشى ١٩٦٤م.

ج

٥٣ – جامع البيان ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، المطبعة الأميرية القاهرة

ح

٥٤ – حاضر العالم الاسلامى، لشكيب أرسلان ، ط بيروت
٥٥ – حضارة العرب، جوستاف لوبون ، ترجمة زعيتر ط الحلبى
٥٦ – الحضارة الاسلامية الدكتور الخربوطلى ، خودا بخش ترجمة، ط الحلبى
٥٧ – الحضارة الاسلامية، ادم بتنر ترجمة الدكتور ابوزيدة ، ط الحلبى
٥٨ – الحضارة الاسلامية ترجمة عبد العزيز جلويد، جوستاف جروت بارم ، ألف كتاب
٥٩ – حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ، عباس محمود العقاد ، ط دار الهلال.
٦٠ – الحياة الوجدانية، للدكتور محمود حب اللـه، ط الحلبى

خ

٦١ – الخطابة، للاستاذ محمد ابوزهرة، مطبعة العلوم.
٦٢ – الخراج فى الدولة الاسلامية، د محمد ضياء الدين الريس، نهضة مصر.
٦٣ – الخراج، للقاضى ابو يوسف، ط الاميرية.
٦٤ – خزائن الكتب من الخافقين ، لفيليب طرزى، ط بيروت

د

٦٥ – دائرة المعارف الاسلامية، المجموعة المستشرقين، ط كتاب الشعب.
٦٦ – دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدى، القاهرة.
٦٧ – دائرة المعارف الحديثة، احمد عطية اللـه، القاهرة.

٦٨ – دراسات فى حضارة الاسلام، هاملتون جب ترجمة الدكتور احسان عباس، بيروت.
٦٩ – الدعوة الاسلامية دعوة عالمية، للاستاذ محمد الروى، الدار القومية.
٧٠ – الدعوة الى الاسلام، توماس أرنولد. ترجمة حسن ابراهيم، النهضة العربية.
٧١ – دعوة الحق، مجلة مغربية تصدرها وزارة الأوقاف،

ذ

٧٢ – ذم الهوى، لابن الجوزى، دار الكتب الحديثة.

ر

٧٣ – روح الاسلام، سيد امير على، بيروت.
٧٤ – روح المعانى، للألوسى، المطبعة المنيرية.
٧٥ – رسالة التوحيد، للشيخ محمد عبده، دار الهلال.
٧٦ – رسالة الاسلام، مجلة فصلية ، جماعة التقريب. الزمالك
٧٧ – رسالة العلم، مجلة فصلية، جمعية العلوم. القاهرة

ز

٧٨ – زاد المعاد، لابن القيم الجوزية، المطبعة اليمينية. القاهرة.

س

٧٩ – سيرة النبى، لابن هشام، ط كتاب التحرير.
٨٠ – الاسلام فى القرن العشرين ، للعقاد، دار الهلال.

ش

٨١ – الشخصية، للاستاذ محمد عطية الأبراشى، ط لجنة التأليف.

ص

٨٢ – صحيح البخارى، ، ط كتاب الشعب والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
٨٣ – صحيح مسلم، ، ط كتاب التحرير.
٨٤ – صحيح مسلم بشرح النووى ، ، ط كتاب الشعب.

ض

٨٥ – ضحى الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية.

ط

٨٦ – طبقات الأطباء والحكماء، لابن جلجل الاندلسى، ط المعهد الفرنسى. القاهرة

٨٧ – ظهر الاسلام، احمد امين، طبع بيروت.

ع

٨٨ – عاديات حلد ، المجلد الأول والثانى والثالث، حلب.
٨٩ – العلوم عند العرب، قدرى طوقان، الألف كتاب.
٩٠ – العلم والحضارة، الشيخ عبد الحفيظ حسين، ط المجلس الأعلى الاسلامى
٩١ – العلم والمجتمع العربى ، حمدى ابراهيم عيسى، ط المجلس.
٩٢ – العقد الفريد، لابن عبد ربه، ط القاهرة.
٩٣ – العقيدة الاسلامية، بحث للشيخ ابو زهرة، فى مجمع البحوث الاسلامية بالازهر

غ

٩٤ – الغربيين، ، ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة.
٩٥ – غرائب القرآن، النيسابورى، الأميرية.

ف

٩٦ – الفصل فى الملل والنحل، لابن حزم، ط صبيح.
٩٧ – الفهرست، لابن النديم، ط بيروت.
٩٨ – فضل العرب على أوربا، سيجر بدهونكة ترجمة، فؤاد حسين. القاهرة.
٩٩ – فضل العرب على الانسانية ، للدكتور عزت مريدن، دمشق.
١٠٠ – الفكر الاسلامى الحديث وعلاقتة بالاستعمار الغربى، د محمد البهى، مكتبة وهبى.
١٠١ – الفيصل، ، مجلة شهرية تصدر بالرياض.
١٠٢ – فخر الاندلس، للدكتور حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة.
١٠٣ – القيم الاسلامية، للدكتور عبد الحكيم المغربى، ط المجلس.
١٠٤ – قصة الحضارة، ولديور انت ترجمة محمد بدران، ط لجنة التأليف.

ل

١٠٥ – اللسان العربى، لابن منظور، طبع بيروت.
١٠٦ – اللسان العربى، ، مجلة سنوية تصدر بالمغرب
١٠٧ – المنهل، ، مجلة ربع سنوية بالمغرب.
١٠٨ – المورد، مجلة ربع سنوية، بالعراق.
١٠٩ – كتاب «الله»، عباس محمود العقاد، دارالهلال.

م

١١٠ - الملل والنحل، للشهر ستانى، تحقيق بدران القاهرة.

١١١ - مآثر العرب على الحضارة الأوربية، حلال مظهر، ط انجلو مصرية.

١١٢ - مواسم الازهر الثقافية، اربع مجلدات، ط الازهر.

١١٣ - من وحى السماء، احمد عبد الرحيم السانح، ط المجلس.

١١٤ - مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، لجنة العيان.

١١٥ - المعرفة عند مفكرى المسلمين، للدكتور غلاب، الدار المصرية.

١١٦ - محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمى ، إحياء الكتاب العربى.

١١٧ - معالم الثقافة الاسلامية، للدكتور عبد الكريم عثمان ، الرياض

١١٨ - معالم الحضارة الاسلامية، للدكتور مصطفى الشكعة، بيروت.

ك

١١٩ - نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية، مجموعة بحوث، ط المقتطف بمصر.

هـ

١٢٠ هدى الإسلام، مجلة شهرية ، الأردن.

* * *

المحتويات

المحتويات

الموضـــوع	الصفحة

رقم الإيداع
٢٠٠٠/١٦٥١٣
I.S.B.N.
977 - 294 - 211 - 9

مطـابع آمــون

٤ الفيروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦